

الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية ومن الحروب الصليبية



كتبه حماد زيان في كتابه
كلية الآداب - جامعة القاهرة

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذة/ دلال راشد

الاسكندرية

الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية ومن الحروب الصليبية

تأليف

دكتور محمد زيان فكاخ زيان
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

دار الثقافة للنشر والتوزيع
القاهرة - ت : ٩٠٤٦٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » •

صدق الله العظيم
(سورة آل عمران — آية ١٠٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهد المشرق الأدنى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حدثا تاريخيا جسيما وهو العدوان الصليبي على البلدان الاسلامية ، واستطاع الصليبيون خلال سنوات قليلة الاستيلاء على عدد من المدن والقرى الاسلامية ، وأسسوا أربع كيانات صليبية هي الرها وانطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، وذلك فى فترة زمنية وجيزة ، الأمر الذى يدعو الى التعجب والدهشة * * * غير أن هذه الدهشة لا تلبث أن تزول اذا عرفنا أن منطقة المشرق الأدنى كانت تمر فى تلك الفترة بمرحلة تمزق داخلى ، ساعد كثيرا على تحقيق انتصارات الصليبيين •

وكان هذا التمزق الداخلى نتيجة مجموعة من الصراعات نشبت بين مختلف القوى التى حكمت الدولة الاسلامية ، سواء كانت قوة الخلافة العباسية أم قوة السلاجقة ، أم قوة الدولة الفاطمية ، وكذلك باقى القوى التى ظهرت بعد ذلك مثل الأتابكة والأيوبيين •

واذا كانت الدولة الاسلامية قد شهدت ظهور عدة شخصيات قوية كافحت وجاهدت فى سبيل لم شمل الدولة الاسلامية وتوحيد الكلمة ضد الصليبيين ، ومن خلال تلك الوحدة تم انزال عدة ضربات قوية بهم ، والحاق الهزائم المتتالية بجيوشهم ، وانتزاع ما سلبوه من أراضى وممتلكات اسلامية • فأننا نجد الصراع والتمزق ما يلبث أن يعود من جديد بين قادة وحكام الدولة الاسلامية ليفجر معه فوضى شامله ، ويفرق كلمة المسلمين •

وبطبيعة الحال كان المستفيد الوحيد من وراء ذلك الصراع هم الصليبيون ، الذين عملوا دائما على تغذيته وانفعال ناره ، حتى تتفكك عرى وحدة الدولة الاسلامية ، وينالون ما يريدون •

ويتضح لدارس تاريخ الجهاد ضد الغزو الصليبي ، أن العقبة الكبرى التي كانت تقف أمام القادة المسلمين ليست في قوة الصليبيين ، بقدر ما كانت تكمن في ذلك الداء الرابض في جسد الدولة الاسلامية الا وهو لصراع والتطاحن السياسى والعسكرى بين مختلف القوى الاسلامية •

وفى هذه الدراسة تناولت بالشرح تطور ذلك الصراع منذ أيام السلاجقة وحتى زمن الأيوبيين ، وهى الفترة التى شهدت الحروب الصليبية واشتداد أدوارها ، موضحا نتائج ذلك الصراع الخطيرة على مجرى حوادث التاريخ بالدولة الاسلامية •

وأسأل الله أن أكون قد وفقت فى اللقاء الضوء على أحد المسالاب التى تعرضت لها أمتنا الاسلامية ، وما زالت تتعرض لها ، وكانت سببا رئيسيا فى تمكين الصليبيين من الاستيلاء على أجزاء من ديار الاسلام • داعيا الله جل وعلا أن يلهمنا الرشد والصواب •

« ربنا لا تؤخذانا ان شئنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرأ
كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا
واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين » •
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

ذو القعدة ١٤٠٠

القاهرة فى أكتوبر ١٩٨٠

حامد زيان غانم زيان

الفصل الأول

السلالة والفوضى السياسية

(أ) الصراع حول السلطنة

(ب) سلالة الشام والصراع الداخلي

(ج) صراع السلالة مع القبائل العربية

الفصل الأول

السلاجقة والفوضى السياسية

(١) الصراع حول السلطنة

أصبح السلاجقة^(١) هم حماة الخلافة العباسية السنية وذلك منذ دخولهم بغداد نجدة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٢٢٤ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) لحمايته من أبى الحارث البساسيري الذي حاول إسقاط الخلافة العباسية السنية وإقامة الدعوة على منابر بغداد للخلافة الفاطمية الشيعية ♦

ومنذ ذلك الحين توالى على سلطنة السلاجقة ثلاثة من السلاطين الأقوياء هم السلطان طغرلبيك (٤٢٩ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م) والسلطان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) والسلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) ، وتمتعت الخلافة العباسية فى ظل هؤلاء السلاطين بقوة كبيرة ، واستطاع السلاجقة السيطرة على كل أجزاء الدولة العباسية بالإضافة الى انزالهم هزائم ساحقة بالمبزنطيين كان اهمها موقعة ملاذكرد - مانزكرت - عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، كما استردوا من الفاطميين ما فقدته الدولة العباسية من أملاك ببلاد الشام ♦

غير انه بوفاة السلطان ملكشاه عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م تفككت دولة السلاجقة ، وكان ذلك بسبب الصراع حول السلطنة ♦ ♦

فبعد أن آلت السلطنة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه الى ابنه محمود (٤٨٥ - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٩٤ م) الذى كان طفلاً صغيراً تحت

(١) نسبة الى سلجوق بن دقاق من التركمان « الغز » الذين سكنوا إقليم بخارى . راجع : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ١٧٦ ، عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ص ٥٦ .

وصاية والدته « تركان خاتون » ، ولقبه الخليفة بلقب « ناصر الدنيا والدين » (٢) ، خرج عليه أخوه الأكبر بركياروق وطالب بالسلطنة بوصفه الابن الأكبر ، فاعترف بسلطنته الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ولقبه « ركن الدين » (٣) . وفى نفس الوقت فإن تاج الدولة تنتش أخو ملكشاه وصاحب دمشق طمع هو الآخر فى السلطنة (٤) . وطالب من الخليفة الاعتراف بحقه فى السلطنة ، غير أن الخليفة رفض ذلك وذلك لعدم شرعيته فى السلطنة (٥) .

وإذا كانت تركان خاتون قد توفيت عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م مما أضعف من شأن ابنها السلطان محمود ، ومهد الطريق لبركياروق للانفراد بالسلطنة (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ / ١٠٠٤ - ١١٠٤ م) (٦) ، إلا أن عمه تاج الدولة تنتش رفض الاعتراف بسلطنته وناصبه العداة ، مطالباً بحقه فى السلطنة (٧) .

وأخذ تاج الدولة تنتش يعد العدة للدخول فى صراع عسكرى ضد بركياروق محاولاً إقامة جبهة قوية من حكام الشام للاستعانة بهم ضد بركياروق ، فتوجه الى قسيم الدولة آق سنقر (٨) بحلب واتفق

(٢) ابن أبى الدم الحموى : القاريخ المظفرى ، ورقة ٩١ ب (مخطوط) .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٧٧ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٤٤ .

(٥) ابن كثير : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

(٦) ابن أبى الدم الحموى : المصدر السابق ، ورقة ٩١ ب (مخطوط) .

(٧) ويبدو أن السلطان ملكشاه كان يخشى من أخيه تنتش وزيادة اطماعه واتساع نفوذه ، لذلك رفض أن يوليه حكم حلب ، واقرها لمسلم بن قريش العقيلي ، غير أن الاحداث سارت على عكس ما يشتهى ملكشاه ، فقد آلت حلب بعد صراع الى تنتش ، وبذلك تولى تنتش حكم الشام كله وأصبح مرهوب الجانب انظر : ابن العديم : بغية الطالب فى تاريخ حلب . Rec. Hist. or, T3, p 703 ، ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٤ ، أبو شامة : الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ص ٢٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٧٠ .

(٨) انظر بعده الفصل الثالث .

معه على ضرورة مساندته في صراعه المقبل ضد بركياروق ، كما أرسل الى بوزان صاحب حران والرها ، وكذلك الى ياغي سيان صاحب انطاكية ، وطلب منهم أيضا مساندته ضد بركياروق ^(٦) . وهكذا اقام تنش حلفا ضد بركياروق ، صاحب السلطة الشرعية في دولة السلاجقة .

وفي عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م زحف تنش بجيوشه وجيوش حلفائه الى اذربيجان لمنازلة ابن أخيه بركياروق ، والتقى الجمعان ، غير أن المفاجأ التي كانت في انتظار تنش هي انضمام جيوش حلفائه

آق سنقر وبوزان الى جانب جيوش عوه بركياروق ، مما جعل تنش يسارع بالعودة الى دمشق دون الدخول في حرب مع بركياروق ^(١٠) .

وبعد أن أعاد تنش ترتيب صفوف جيشه ، فرج للانتقام من حلفائه الذين خانوه وتخلوا عنه ، فتوجه الى حلب في جمادى الآخرة من عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وعلى الرغم من الامدادات التي تلقاها قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب من بركياروق وحلفائه بوزان صاحب حران والرها وكربوغا أحد قادة بركياروق ، إلا أنه لم يستطع الصمود أمام جيوش تنش ، وانهزم في موقعة تل السلطان ^(١١) ، ووقع أسيرا في قبضة تنش الذي « قتلته صلبا » ^(١٢) . أما بوزان وكربوغا فقد فرا الى حلب ،

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ، ج ١ ص ٢٢ ، ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦ ، ابن كثير : البدايات والنهاية ، ج ١٢ ص ١٤٤ .

(١٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ص ٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٥ — ٢٦ .

(١١) مكان على بعد ستة فراسخ من حلب (انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٨٦٧) .

(١٢) يذكر ابن واصل انه لما وقع قسيم الدولة آق سنقر اسيرا في يد تنش أحضره تنش وقال له : لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ فقال آق سنقر : كنت أرى قتلك . فقال له تنش : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم على . (انظر مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٦) .

ومن جانب آخر يرى ناصر بن الحسين أن مسؤولية هزيمة آق سنقر تلقى على عاتق بركياروق الذي تخلى عن قسيم الدولة آق سنقر أثناء محاربة تنش له « وانشغل عنه بشربه ، وإن اتابكه — أي اتابك بركياروق — اشتغل عنهم بأمر السلطان زيدة خاتون وكان مهتما بها » .

فتبعهما تتش وضرب الحصار على حلب ، ولم تمر مدة قصيرة حتى استطاع تتش دخول حلب ، وقبض على بوزان وكربوغا ، أما الأول فقد قتله تتش بعد امتناع أهل حران والرها من الاستسلام له ، في حين استمر الثاني في حبس تتش (١٣) .

غير أن تتش لم ينعم بهذا النصر طويلا ، خاصة بعد أن تبددت الصعاب التي أحاطت ببركياروق ، فشفي من مرض الجدرى الذي أصابه ، وتوفي أخاه محمود منافسه في السلطنة ، وانحاز إلى جانبه امرأ أخيه ، هذا كله فضلا عن أن انضمام مؤيد الملك بن نظام الملك إلى جانب بركياروق وتوليته مهام الوزارة أعاد الاستقرار إلى دولة بركياروق (١٤) .

وما أن شعر بركياروق بقوته حتى مضى على رأس جيوشه يرافقه وزيره مؤيد الملك لمحاربة عمه تتش ، الذي انتهى أمره بالهزيمة والقتل في موقعة الرى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م (١٥) .

وهكذا امتلأ تاريخ الدولة الإسلامية في تلك الفترة بصراع مرير خاصة داخل صفوف السلاجقة ، وهي القوة التي أصبحت تشرف على أملاك الدولة العباسية ، والتي أعادت بظهورها القوة بالخلافة العباسية .

= (انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٧٥ — ٧٦) غير أن هذا الرأي قد جانبه الصواب فليس من المقبول أن يتشغل بركياروق عن حرب منافسه في السلطنة ، ولكن يبدو أن بركياروق كان مصابا في تلك الفترة بمرض الجدرى ، وهذا هو الذي أخره عن المشاركة بنفسه في قتال تتش . (راجع أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٠٦) .

(١٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٤ .

(١٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ص ٩٠ ، حامد زيان : حلب في العصر الزنكي ، ص ٤ .

(١٥) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٠ ، أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ٢٠٦ ، ناصر بن الحسين : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٧٦ . ويشير ابن خلدون إلى أن الذي قتل تاج الدولة تتش هم بعض أصحاب آق سنقر ، انتقاما لصاحبهم (انظر : المصدر ، ج ٥ ص ١٤٧) .

وننتج عن هذا الصراع تدهور ملحوظ في قوة السلاجقة ، كما تنتج عنه أيضا انقسام دولة السلاجقة الى عدة اقسام هي سلاجقة فارس وسلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وسلاجقة الشام .

وكان من سوء الطالع ان يأتى هذا الانقسام والتمزق في الوقت الذي كانت فيه البابوية في غرب أوروبا تدعو الأوروبيين للقيام بحرب صليبية مقدسة ضد المسلمين ببلاد الشام ^(١٦) ، وقد لبى أهالي الغرب الأوروبي دعوة البابوية وأخذوا في الاستعداد للقيام بالحملة المنشودة .

ولا شك في أن حالة التدهور والانقسام التي أصابت السلاجقة في ذلك الحين أدت الى عدم مقدرتهم في التصدي لجيوش الحملة الصليبية ، بنفس الدرجة التي تصدوا بها لجيش البيزنطيين عام ١٠٧١ م وانزلوا بها هزيمة ساحقة عند ملازكرد — مانزكرت — ، وساعد ذلك بطبيعة الحال على حصول الصليبيين على الانتصارات السريعة والاستيلاء على الأراضي الإسلامية ببلاد الشام والجزيرة .

واستمر الصراع على السلطنة السلجوقية قائم بين أبناء البيت السلجوقي بعد بركياروق . ففي زمن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ — ٥٢٥ هـ / ١١١٧ — ١١٣١ م) خرج عليه أخوه طغرل ، كما أن حروبا كثيرة وقعت بين محمود وبين عمه سنجر صاحب خراسان عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، تلك الحروب التي انتهت بهزيمة ساحقة للسلطان محمود . كذلك خرج مسعود صاحب الموصل واذربيجان على أخيه السلطان محمود وطالب بأحقية في السلطنة ^(١٧) .

(١٦) في عام ١٠٩٥ م عقد البابا أوربان الثاني مجمعا دينيا في كليرمونت دعى فيه الغرب الأوروبي للقيام بالحروب الصليبية .
وعن تفاصيل ذلك انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٠

— ٧٤ ، ١٢٦ ، ١٣٩ .

(١٧) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ .

كذلك دخلت دولة السلاجقة فى صراع شديد عقب وفاة السلطان محمود عام ٥٢٥هـ / ١١٣١م ، خاصة بعد أن آلت السلطنة الى داود بن السلطان محمود ، ، اذ خرج عليه عمه مسعود وطالب بالسلطنة ، واشترك فى هذا الصراع كافة أمراء السلاجقة الى أن انتهى الأمر بتولية مسعود السلطنة عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م (١٨) .

وقد انشغل سلاطين السلاجقة — بطبيعة الحال — بصراعاتهم الداخلى حول السلطنة ، عن محاربة الصليبيين الذين كانوا قد وصلوا الى الشام ، وشرعوا فى الاستيلاء على مدنه وبلدانه ، فى حين كان من المفروض أن يتحمل هؤلاء السلاجقة عبء الدفاع عن بلاد الشام ، بصفتهم حماة لأملاك الدولة العباسية (١٩) .

* * *

(١٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥٦ وما بعدها ، أنبندارى : المصدر السابق ص ١٤٥ — ١٥٧ .

(١٩) يبدأ أن الخلفاء العباسيين غضبوا من موقف السلاجقة ، ويتضح ذلك مما جاء فى خطبة للخليفة المسترشد عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ، جاء فيها « فوضنا أمورنا الى آل سلجوق فبغوا علينا (فطال عليهم الامد فقسمت قلوبهم وكثير منهم فاسقون) » .

انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٥٦ .

(ب) سلاجقة الشام والصراع الداخلى

ولما كانت بلاد الشام هى مقصد الصليبيين ووجهتهم ، لذا يجب علينا أن نوضح ما سادها من صراع سياسى وعسكرى خاصه بين حكامها السلاجقة ، وذلك قبيل واثناء وصول الصليبيين اليها •

وتشير المصادر التاريخية أنه بوفاة تاج الدولة تنتش عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م دخلت بلاد الشام فى فوضى شاملة وذلك بسبب التنافس والصراع الذى نشب بين أولاد تنتش حول السلطة من جهة ، وبسبب العداء بين هؤلاء الأبناء — حكام الشام — وقوادهم وامرائهم من جهة أخرى •

وتفصيل ذلك ، انه عند نشوب معركة الرى التى انتهت بمقتل تاج الدولة تنتش ، ان كان معه ابنه دقاق فانهمزم ، أما ابنه الثانى رضوان فكان متوجها الى العراق (٢٠) ، وقد بلغه نبأ مقتل أبيه وهو بالقرب من هيت ، فعاد مسرعا الى حلب (٢١) ، وكان نائب حلب فى ذلك الحين أبو القاسم الخوارزمى ، الذى رفض تسليم حلب الى رضوان ، ومن الجدير بالذكر أن أبا القاسم هذا كان ذو سلطة وقوة ، وأخيرا استطاع رضوان دخول حلب عن طريق الحيلة أثناء الليل ، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها ، وقام بتدبير أمور دولته الأمير جناح الدولة الحسين بن أفنديكين زوج والدته (٢٢) • أما دقاق — الابن الثانى لتنتش —

(٢٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٠ •
(٢١) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٤٧ •

(٢٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ ، بيشوف : تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء ، ص ٤٨ •

وكان بصحبة رضوان أثناء توجهه الى حلب معظم قاداته واخوائه الصغيران أبا طالب وبهرام ، ووالدته وزوجها جناح الدولة • (انظر أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٤٨) •

فُتوجه الى دمشق وملكها ، حيث سلمها اليه نائب ابيه الأمير ساوثكين ،
وخطب له على منابرها (٢٣) .

وهكذا اقتسم أولاد تنتش بلاد الشام فيما بينهم ، فأخذ رضوان
حلب ، أما دمشق فكانت من نصيب دقاق . لكن الصراع والتنافس
لم يلبث أن ظهر بينهم منذ اللحظة الأولى ، وتجلّى هذا الصراع فى
البداية عندما أقدم رضوان على التخلص من أخويه الصغيرين أبا طالب
وبهرام ، وحتى قبل أن يدخل حلب (٢٤) . وهذا العمل يوضح لنا مدى
ما تأصل فى نفوس أبناء تنتش من صراع وتطاحن ، اذ ظن رضوان
انه بقتله اخوته الصغار سيتخلص من منافستهم له فى المستقبل ، وبذلك
يفسح له المجال فى السيطرة على بلاد الشام كلها .

ومن ناحية أخرى ، فانه قد راودت رضوان فكرة وهى أنه وحده هو
حاكم الشام ، وليس لأحد من اخوته الحق فى مشاركته حكم الشام ،
وذلك نتيجة ما أوصى به والده تاج الدولة تنتش أصحابه قبل دخوله
معركة الرى ، فقد أوصى امرأه بضرورة طاعة رضوان (٢٥) . ويبدو أن
رضوان قد فسر تلك الوصية على أنها مبايعه له بحكم الشام كله أى كل
ممتلكات أبيه .

ومن ناحية ثالثة فان رضوان كما يشير ابن القلانسي (٢٦) ، كان
« يميل الى دمشق ، محبا لها ومؤثرا العود اليها ، لمعرفته بمحاسنها
وترعرعه فيها » وقد دفعه هذا الحنين الى دمشق الى خوض معارك
طاحنة ضد أخوه دقاق .

وكان أن بدأ رضوان صراعه بمحاولة الاستيلاء على بلدان الشام
الخارجة عن يده ، وذلك قبل أن يستولى عليها أخوه دقاق ، فتوجه بجيشه

(٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٤٩ .

(٢٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢١ .

وصحبته الأمير ياغى سيان بن محمد التركمانى صاحب انطاكية الى ديار بكر للاستيلاء عليها (٢٧) ، ثم توجه بعد ذلك الى الرها واستولى عليها ، ثم اتجه الى سروج لكن قد سبقه اليها أحد امراء الأرائقة وهو سكرمان ابن رتق ، وبعد ذلك عاد الى حلب (٢٨) ♦

أما الجولة الثانية من الصراع فكانت موجهة ضد دمشق ، حيث جهز رضوان جيشه واتجه صوب دمشق وبصحبه الأمير ياغى سيان والأمير جناح الدولة ، وكان ذلك عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ ، وفرضوا عليها الحصار مدة ، غير أن حصانة ومناعة دمشق اجبرتهم على رفع الحصار والعودة الى حلب دون حرب (٢٩) ♦

وليت الأمور وقفت عند هذا الحد ، وانتهى الصراع عند ذلك ، وانما أخذ التنافس والتطاحن يتفاقم ويتزايد بين الأخوين ، حيث كانت الجولة الثانية من ذلك الصراع نتيجة الخلاف والمشقاق الذى وقع بين الأمير ياغى سيان وسيدته رضوان ، الأمر الذى حدا بياغى سيان أن يترك جانب رضوان وينحاز الى جانب غريمه دقاق ، ولم يقتصر الأمر على ذلك وانما أخذ ياغى سيان فى تحريض دقاق على مهاجمة رضوان انتقاما منه و « حسن له قصد أخيه رضوان وأخذ حلب منه » (٣٠) ♦ ونتيجة ما كان يسود بين الأخوين من عدااء وكراهية فقد حازت هذه

(٢٥) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢٦) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢٧) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢٨) بيشوف : تحف الأبناء ، ص ٤٨ .

(٢٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١ — ١٣٢ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣٠) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٨٩ .

الفكرة قبولاً لدى دقاق ، الذى أخذ فى الاستعداد لهزيمة حلب رداً على محاصرة رضوان لدمشق من قبل (٣١) .

وبالفعل توجه دقاق بجيوشه صوب حلب ، فما كان من رضوان إلا أن تحالف مع سكرمان بن أرتق ، وخرجاً سوياً لمقابلة جيوش دقاق ، وتقابل الجيشان عند قنسرين ، حيث دارت رحى معركة طاحنة انتهت بهزيمة دقاق ، مما اضطره إلى العودة إلى دمشق ببقية جيشه ، واكتفى رضوان بالحقاق الهزيمة بجيوش أخيه وقفل راجعاً إلى حلب (٣٢) . ثم توصل الجانبان إلى الصلح فى نفس العام (٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م) على أن يخطب لرضوان بدمشق وانطاكية قبل دقاق (٣٣) .

غير أن الصراع ببلاد الشام لم ينته بذلك الصلح المبرم بين رضوان ودقاق — السابق الذكر — ، وإنما ظهر صراع آخر ، صراع بين حكام الشام من السلاجقة وقوادهم وامرائهم ، ونحن قد أشرنا سابقاً إلى حدوث الاختلاف والشقاق بين رضوان وبياغى سيان ، وما تبعه من زيادة الفوضى والتفكك ببلاد الشام .

وبالإضافة إلى ذلك فقد حدث عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م أن وقع خلافاً آخر بين رضوان والأمير جناح الدولة حسين أتابكة (٣٤) ومدير دولته وزوج والدته ، وخرج جناح الدولة من حلب غاضباً واتجه صوب حمص فى

(٣١) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى الشام والعراق ، ص ٦٤ .

(٣٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، بيشوف : تحف الأنبياء ص ٤٨ .

(٣٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ١٤٩ .

(٣٤) الأتابك لتب يتألف من لفظين تركيبين هما « أطا » بمعنى أب و « بك » بمعنى أمير ، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقة على أحد الأمراء الكبار الذى كان يتولى الوصاية عن بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير .
انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٤٦ حاشية رقم ١ .

عسكره وخواصه حيث سلمها اليه فائبها قراجا ، وقد اتخذ جناساح الدولة من حمص مقرا له ولأهله بعد تحصينها وترميم قلعتها وحشدتها بالرجال والمسلح خشية مهاجمة رضوان له (٣٥) .

وهكذا أخذ الصراع ببلاد الشام يمتد ليشمل الحكام والأمراء والقادة ، مما أدى الى زيادة التفكك والانقسام وذلك في الوقت الذي تحركت فيه جيوش الحملة الصليبية الأولى من الغرب ، متجهة الى بلاد الشام ، ووصلت فعلا في ذلك الحين مقدماتها الى آسيا الصغرى . وكان من الأولى على حكام الشام من السلاجقة بدلا من دخولهم في صراع مع بعضهم البعض ، وتنصفيّة أنفسهم بأنفسهم ، وتفتتت قواهم وتمزيق شملهم . . . أن يقفوا يدا واحدة تجاه ذلك الغزو الصليبي .

* * *

ولم يقف الصراع ببلاد الشام عند هذا الحد ، وإنما دفع الحقد والتنافس بعض حكام الشام الى الارتقاء في أحضان الصليبيين بعد وصولهم الى بلاد الشام !! والاعتماد على أية قوة في سبيل تحقيق اطماعهم !!

وتفصيل ذلك ، ان رضوان أخذ يبحث لنفسه عن قوة يستعين بها في صراعه ضد أخيه دقاق وبقيّة أمراء الشام . وأخيرا وجد هذه القوة في شخص الدولة الفاطمية الشيعية ، التي كانت تسعى لفرض نفوذها على أملاك العباسيين ببلاد الشام ، وبالفعل تم الاتفاق بين الجانبين على أن يسقط رضوان خطبة العباسيين من على منابر الشام ويقيمها للخليفة الفاطمي المستعلي ، في مقابل أن يمدّه الفاطميون بالمال والعساكر (٣٦) . لكن يبدو أن هذا الاجراء أغضب حلفاء رضوان الذين كانوا يريدون المحافظة على الخلافة العباسية السنية ، ومن بينهم سكران

(٣٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٣ .

(٣٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٧ ، ابن ميسر : تاريخ مصر . Rec. Des. Hist. or. T3, p 461 - 462 . ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٤ .

ابن ارتق ، لذلك لم يجد رضوان بدا من قطع خطبة المستعلى الفاطمى
واعادتها للعباسيين (٣٧) ♦

واعاد رضوان البحث عن قوة أخرى يستعين بها ، وفي هذه المرة
وجد ضالته في قوة الباطنية (٣٨) ، وبالفعل انحاز رضوان الى جانبهم
« واطهر مذهبهم في حلب ، وصار لهم الجاه العظيم والقدر الزائدة ،
وصارت لهم دار الدعوة بحلب في ايامه » (٣٩) ♦

ونتيجة انحراف الباطنية ، وقف اهالى الشام منهم موقف المعاداة ،
وتحدث كثير من امراء الشام مع الملك رضوان في التخلي عنهم ، لكنه
« لم يلتفت ولم يرجع عنهم » (٤٠) ، مما أساء كثيرا الى سمعة رضوان ،
واطلق العوام المنتههم « بالسب له وتعييبه » (٤١) ، كما أدى ذلك الى
زيادة الفوضى والاضطراب ببلاد الشام ♦

وهكذا أدى ذلك الصراع والتنافس بين أبناء البيت السلجوقى
ببلاد الشام ، الى التخبط والانحراف ، فتارة يقتتلون بعضهم بعضا ،
وتارة أخرى يستعينون بقوى خارجية لتحقيق أطماعهم ، بصرف النظر
عن طبيعة هذه القوى ♦

وازداد تخبط هؤلاء الحكام فاستعانوا بالصليبيين وتحالفوا معهم
ضد كل من تحدثه نفسه باعادة توحيد الجبهة الاسلامية ، كما سيأتى
ذكره ♦

(٣٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ ، ابن ميسر :
تاريخ مصر .

(٣٨) عن الباطنية أنظر بعده .

(٣٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى محاسن ملوك مصر والقاهرة ،
ج ٥ ص ٢٠٥ .

(٤٠) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(ج) صراع السلاجقة مع القبائل العربية

لم تكن القبائل العربية بالشام والعراق والجزيرة ، بعيدة عن ذلك الصراع ، وانما اشتركت فيه اشتراكا مباشرا .

والمتتبع لسير الحوادث التاريخية يجد أن القبائل العربية التي أقامت لها دويلات مستقلة في حلب (الدولة المرداسية وكونها بنوكلاب) ، وفي الموصل (الدولة العقيلية وامتدت أيضا الى حلب وكونها العقيليون) قد ناصبت هذه الدول السلاجقة العداء ، وتعاونوا من أجل مجابهة السلاجقة وقد اتضح ذلك عندما وقفت القبائل العربية الى جانب مسلم بن قريش العقيلي في صراعه ضد السلاجقة (٤٢) . غير أن السلاجقة استطاعوا السيطرة على القبائل العربية ، ومن ثم دخلت هذه القبائل تحت سيادة وسلطان السلاجقة (٤٣) ، بعد صراع دام فترة طويلة . ولا داعي للخوض في تفاصيل ذلك الصراع ، وانما نكتفي بالإشارة الى أنه كان لهذا الصراع عدة نتائج أهمها : زوال سلطان القبائل العربية المستقلة ودخولها تحت سيادة السلاجقة ، وكذلك وهو الأهم إثارة روح الحقد والكراهية بين هذه القبائل والسلاجقة .

وهذه النتيجة الأخيرة هي التي تفسر لنا موقف القبائل العربية من الحروب الصليبية ، فيشير كثير من الكتاب الى أن القبائل العربية الموجودة بالشام والجزيرة نكمت على السلاجقة سيطرتها على البلاد ، وأخذت تتحين الفرص للانتقام منها ، وقد وجدت هذه القبائل فرصتها في مجيء الصليبيين الى بلاد الشام ، لذلك اتبعوا معهم سياسة

(٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٧٠ ، محمد كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ١٦٢ .

(٤٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ١٠٠ — ١٠٣ .

المسألة والمهادنة ومدوا لهم يد المعونة فى فترات كثيرة (٤٤) * ومن أمثلة ذلك ما قام بين بنو منقذ والصليبيين من تعاون ، وقد أورد أسامة بن منقذ تفاصيل كثيرة عن ذلك التعاون (٤٥) *

ولا شك فى أن الصليبيين كانوا هم المستفيدين الموحدين من وراء هذا الصراع * وإذا كان الصليبيون قد قبلوا فى فترة من الفترات مسألة ومهادنة القبائل العربية ، فانما كان ذلك الى حين تثبت أقدامهم ببلاد الشام وتوطدت دولهم ، ثم بعد ذلك قاموا بالاعتداء على أراضي وممتلكات القبائل العربية نفسها * وقد دفع هذا الأمر القبائل العربية الى تغيير موقفها من الصليبيين وانحازت الى جانب السلاجقة ، أثناء محاربتهم للصليبيين (٤٦) * ومن أمثلة ذلك ما فعله مبارك بن شبل أمير بنى كلاب من تحالفه مع الملك رضوان عام ٤٩٣هـ (١٠٩٩م) ، وما فعله وثاب بن محمود من تحالفه مع الملك دقاق أثناء اغارته على أهل تل منس (٤٧) *

(٤٤) انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٠ ،

Setton : Allhistory of the crusades, vol, p. 140.

(٤٥) راجع كتاب الاعتبار ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٤٦) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(٤٧) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٣ .

ومن التجدير بالذكر ان القبائل العربية قد مارست بعد ذلك — زمن الاتابكة — سياسة الاعتداء على قوافل الحجاج ، مما دفع السلطان نور الدين محمود الى ان يقطعهم الاقطاعات .

(٨) راجع : التويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ، ج ٢٥ ورقه ٦٠ (مخطوط) .

الفصل الثاني

دور العباسيين في الصراع

(أ) العباسيون والصراع مع السلاجقة

(ب) تنافس العباسيين مع الفاطميين

الفصل الثانى

دور العباسيين فى الصراع

(١) العباسيون والصراع مع السلاجقة

استمرت الخلافة العباسية قائمة على الرغم من محاولات إسقاطها ، وكانت أهم محاولة هى التى قام بها ابو الحارث البساسيرى وهو أحد القادة البويهيين ، وكانت محاولته تهدف الى احلال الخلافة الفاطمية محل الخلافة العباسية^(١) ، غير أن هذه المحاولة فشلت بفضل مساعدة السلطان طغرل بك للعباسيين ، وذلك بعد أن دخل طغرل بك بغداد وانزل الهزيمة بالبساسيرى وقتله ، واعاد الخطبة للعباسيين •

ولكن اذا كان السلاجقة قد مدوا ايديهم لانقاذ الخلافة العباسية ، الا أن ذلك تبعه بسط سيطرتهم على بغداد وسائر ممتلكات العباسيين ، ويبدو ان الخلفاء العباسيين قد قبلوا ذلك للتخلص من سيطرة البويهيين الشيعة^(٢) • ولكن بعد مرور بعض الوقت بدأ صراع خفى يدب بين الخلفاء العباسيين من جهة وسلطين السلاجقة من جهة أخرى ، ومما يلاحظ أن العباسيين فى البداية خشوا اظهار ضيقهم وتذمرهم بتدخل السلاجقة وسيطرتهم على مختلف شئون الدولة وذلك خوفاً من بطش السلاجقة •

وتشير المصادر التاريخية الى أن السلطان السلجوقى طغرل بك أجبر الخليفة العباسى القائم بأمر الله على أن يزوجه ابنته عام

(١) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ١٨٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٦٤ — ٦٦٥ •

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٨٥ •

٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ (٣) • ويروى ابن أبي الدم الحموي (٤) أن طغرل بك تزوج « السيدة بنت القائم بعد الامتناع الشديد من القائم وإنما أجاب خوفاً وغلبة » ، ومعنى ذلك أن خوف الخليفة القائم وازدياد سطوة السلاجقة هو الذى أرغم الخليفة على الموافقة على هذا الزواج ، وقد تعجب المؤرخ السيوطى من حدوث هذه الزيجة وقال عنها « انه امر لم ينله أحد من الملوك السابقين على السلاجقة » (٥) •

ثم تطور هذا الصراع ليأخذ شكلاً ظاهراً ، ويتضح ذلك من موقف السلطان ملكشاه من الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ — ١٠٩٤ م) عندما فكر السلطان ملكشاه فى اتخاذ بغداد مقراً له عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وأصر على طرد الخليفة المقتدى من بغداد وأرسل اليه يقول « لا بد أن تترك لى بغداد ، وتذهب الى أى بلد شئت ، فانزعج الخليفة وقال : امهلنى ولو شهراً ، قال : ولا ساعة واحدة ، فأرسل الخليفة الى زوير السلطان يطلب المهلة الى عشرة أيام » ، ولم ينفذ الخليفة من الطرد من بغداد سوى مرض ملكشاه ووفاته بعد قليل (عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٣ م) (٦) •

وقد انعكس الخفاء العباسيين فى الصراع الدائر بين امراء السلاجقة ، مما اضعف من الخلافة نفسها من جهة ، وأدى الى زيادة الفوضى والتفكك من جهة أخرى •

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٦٧ •

(٤) — التاريخ المظفرى ، ورقه ١٨٧ •

(٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٦٧ •

(٦) ولم يملك الخليفة المقتدى آنذاك سوى الدعاء على ملكشاه ، فيذكر السيوطى ان الخليفة كان فى تلك الايام يصوم واذن الفطر جلس ودعا على ملكشاه ، فلما مات ملكشاه « عد ذلك كرامة للخليفة » . انظر : تاريخ الخلفاء ص ٦٧٦ •

وقد سبق أن ذكرنا أنه حدث بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م وتولية ابنه محمود أمر السلطنة ، أن خرج عليه أخوته طغرل صاحب ساوه ومسعود صاحب الموصل واذربيجان فضلا عن عمه سنجر صاحب خراسان^(٧) ، ولم يستطع السلطان محمود الصمود في وجه هؤلاء الطامعين ، خاصة جيوش عمه سنجر ، فانتهزمت جيوشه ، وقطعت له الخطبة عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، فبينما اقيمت للسلطان مسعود على منابر بغداد * وفي تلك الفترة أخذت تزداد قوة الخليفة المسترشد بالله^(٨) (٥١٣ — ٥٢٩ هـ / ١١١٨ — ١١٣٥ م) خاصة بعد انتصاره على دبليس بن صدقه ، وهما خشي السلطان محمود من ازدياد قوة المسترشد فرأى أن يدخل بغداد ليضع حداً لتطلعات الخليفة المسترشد ، وعندما علم الخليفة بذلك أرسل إلى السلطان محمود يطلب منه تأجيل الحضور إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بها ، غير أن السلطان محمود أصر على موقفه وعزم على دخول بغداد عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، مما دفع الخليفة إلى اعلان الحرب على السلطان محمود ، ومنعه من دخول بغداد بالقوة ، ويبدو أن الانتصارات السابقة التي حققها الخليفة على دبليس بن صدقه هي التي شجعت الخليفة على اتخاذ هذا الموقف من السلطان محمود * وبالفعل نشب القتال بين جند الخليفة وجيوش السلطان محمود ، إلا أن الدائرة دارت على جند الخليفة ، ونهبت دار الخلافة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الجانبين ، وحلف السلطان محمود للخليفة المسترشد بالله^(٩) .

(٧) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٠ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٨) أشادت مختلف المصادر بالخليفة المسترشد ووصفته بأنه كان على الهمة ذو شهامة زائدة ، رغب أمور الخلافة ، وتلقى قسطاً من علوم الحديث ، كما كان محارباً باشر الحروب بنفسه .

انظر : السيوطي : الخلفاء ص ٦٨٣ .

(٩) ابن أبي الدم الحموي : التاريخ المغري ، ورقة ٩٤ ب . ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٤٢ — ٢٤٥ .

وفى عام ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م زج الخليفة المسترشد بنفسه مره ثانية فى صراع مع السلاجقة ولكن هذه المرة كان مع السلطان مسعود (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ١١٣٢ - ١١٥٢ م) ، وقد تشجع المسترشد وقطع الخطبة له وسار الى همدان لمحاربته ، غير أن الخليفة لم يلبث أن انهزم بدون قتال ووقع جميع رجاله واسلحته فى يد السلطان مسعود ، كما أن الخليفة نفسه وقع اسيراً فى يد مسعود ، وانتقل الخليفة وهو اسير الى مراغه فى صحبة السلطان مسعود ، وبينما المسترشد أسير اذ دخل عليه جماعة من الباطنية فقتلوه !! وكثرت الأقوال فى سبب قتل الخليفة ، فمنهم من يقول ان السلطان مسعود هو الذى أرسل هؤلاء الباطنية لقتل الخليفة والتخلص منه ، بينما تشير أقوال أخرى الى أن السلطان مسعود لم يعلم بمقتل الخليفة الا بعد حدوث الجريمة^(١٠) ، وقد اظهر السلطان من الأسى والجزع على قتل الخليفة ، ويشير ابن ابى الدم الحموى الى أن السلطان « لما علم بذلك ركب حافياً وقتل الباطنية جميعاً وحرق جثثهم »^(١١) . وتذكر المصادر أيضاً انه كان قد تم الاتفاق والصلح بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد قبل مقتل الخليفة مباشرة ، وعقد الصلح على أن يدفع الخليفة قدر من المال للسلطان ، وأن يعود الخليفة الى بغداد ، ويشير ابن الجوزى الى أن السلطان سنجر عم السلطان مسعود هو الذى توسط بينهما فى الصلح وارسل الى ابن أخيه يطلب منه عدم الاعتداء على الخليفة وان يقبل الأرض بين يديه ، ويعيده الى مقره ببغداد^(١٢) .

ومهما كان الأمر فان الخليفة المسترشد زج بنفسه فى الصراع الدائر بين امراء السلاجقة دون أن يدري ان هذا الصراع سيؤدى به

(١٠) ابن ابى الدم الحموى : المصدر السابق ، ورقه ١٩١ ، السيوطى : الخلفاء ، ص ٦٨٨ - ٦٨٩ ، البندارى : تاريخ دولة آل سلاجوق ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(١١) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ١٩١ .

(١٢) السيوطى : الخلفاء ، ص ٦٨٨ - ٦٨٩ .

الى هذه النهاية المؤسفة * ولم تقتصر الخسارة على فقدان الخليفة وقتله فقط ، وانما تعدتها الى تفتت وانقسام الدولة الاسلامية كلها والتي يمثل وحدتها الخليفة العباسي *

وبوفاة الخليفة المسترشد تولى الخلافة بعده ابنه الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ — ١١٣٦ م) الذي نقيم على السلاجقة قتلهم لأبيه خاصة السلطان مسعود ، وقد اظهر الراشد من الكره والبغض للسلطان مسعود ما جعله — أي مسعود — يسير الى بغداد ويضرب عليها الحصار ، فاضطر الخليفة ان يخرج من بغداد هارباً الى الموصل ، أما السلطان مسعود فقد اجتمع معه الوزير ابو القاسم علي بن الزينبي واحضر القضاة والفقهاء وكتبوا محضراً يفيد أن الخليفة الراشد اتى من المظلم وسفك الدماء وغير ذلك مما يستوجب « خلعه والاستبدال بغيره من اهل بيته » ، وبالفعل بحثوا عن أحد أبناء البيت العباسي ليحل محل الراشد فوقع اختيارهم على عبد الله محمد عم الراشد الذي تلقب بالمقتفى * أما الراشد فانه توجه من الموصل الى مراغه ومنها سار الى الري ثم الى خراسان ، وهناك قتل جماعة كبيره من الباطنية انتقاماً لوأله ، ثم توجه الى همذان ودخل في حرب مع السلطان مسعود كان المنصر فيها حليف الراشد ، ومن همذان توجه الى اصفهان ، حيث قتل بيد جماعة من الباطنية (١٣) *

وهكذا وللمرة الثانية يقتل الخليفة العباسي نتيجة الصراع الدائر بين الخلافة العباسية والسلاجقة ، وليزداد الموقف تدهوراً وضعفاً في انحاء الدولة الاسلامية *

(١٣) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ٩٧ ، (مخطوط) ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١١ — ٢٨ ، *

يشير السيوطي الى ان الراشد عند وصوله الى اصفهان مرض مرضاً شديداً فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه فقتلوم بالسكاكين * (الخلفاء ص ٦٩٥) ، *

أما الخليفة المقتضى لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ / ١١٣٦ - ١١٦٠ م) فإنه لم يتخل عن فكرة الصراع مع السلاجقة ، ولكنه استخدم أسلوباً آخر ، وهو تكوين جيش قوى ببغداد يكون تابعاً للخلافة ، ونجح المقتضى فى ذلك وبمساعدة السلطان مسعود نفسه .

غير أن دور المقتضى لم يظهر فى حياة مسعود وإنما ظهر بعد وفاته عام ١٤٧ هـ / ١١٥٣ م ، وخاصة وأن السلطنة السلجوقية دخلت بعد ذلك فى مرحلة الضعف والتدهور والانحلال الداخلى (١٤) .

* * *

وفى زمن السلاجقة أيضاً اشترك الخلفاء العباسيين فى صراع مع بعض القوى الأخرى ، مثل قوة دببى بن صدقه ، مما أدى الى زيادة الاضطراب والمفوضى بالدولة العباسية . فقد حدث عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م أن تجهز الخليفة المسترشد بالله وخرج لمحاربة دببى بن صدقه ، وكثر القتل بين الجانبين ، لكن الغلبة كانت لجيش الخليفة ، مما دفع دببى الى الاستعانة بطغرل بك بن محمد أخو السلطان محمود ، وكان بين طغرل بك وبين الخليفة عدااء دفين بسبب السلطنة السلجوقية ، لذا رحب طغرل بك بدعوة دببى ، واشتركا سوياً فى محاربة الخليفة .

وإذا كان الخليفة المسترشد قد انتصر فى تلك الحرب ، إلا أن ذلك أدى الى زيادة انقسام الدولة الاسلامية وتفككها فى وقت عصيب ، وكان من الممكن للخليفة المسترشد أن يلزم شمل القوى الاسلامية المتنافرة بدلاً من بعثتها واراقة دماء بعضها البعض ، ومما يؤخذ على الخليفة المسترشد أيضاً أنه لم يقبل العفو عن دببى بن صدقه عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، عندما طلب منه دببى ذلك ، وانصاع خلف رأى وزيره فى عدم العفو عن دببى ، على الرغم من أن الخليفة وكما ذكرت بعض

(١٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٦٠ ، ٦٥ .

ويشير المؤرخون الى أنه فى أيام المقتضى عادت بغداد والعراق الى يد الخلفاء . انظر : السيوطى : الخلفاء ، ص ٧٠١ .

المصادر تعاطف في البداية مع دبببس وكاد أن يعفو عنه لولا تدخل الوزير الذي حث الخليفة على عدم العفو عن دبببس^(١٥) وبطبيعة الحال أدى هذا الموقف الى نفور دبببس بن صدقه وزيادة الصراع والمتطاحن بينه وبين الخليفة ، ثم الى تحالف دبببس بعد ذلك مع الصليبين كما سيأتى شرحه ♦

(١٥) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ١٩٤ .

(ب) تنافس العباسيين مع الفاطميين

كان لقيام الدولة الفاطمية الشيعية أولا بالمغرب عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م (١٦) ، ثم امتدادها بعد ذلك الى مصر ، ومحاولاتها المتكررة لبسط نفوذها في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية وذلك على حساب ممتلكات العباسيين (١٧) ، اثره في اشتداد المنافسة والصراع بين الفاطميين والعباسيين . وقد اتخذ هذا الصراع أشكالا عديدة ، منه الحربى ومنه السياسى .

ففى المجال الحربى نذكر تلك المعارك الطاحنة التى صاحبت بسط النفوذ الفاطمى ببلاد الشام والجزيرة العربية ، خاصة بلاد الحجاز ، وما تبع ذلك من ازدياد مكانة الفاطميين (١٨) . كذلك ما حدث اثناء بسط النفوذ الفاطمى باليمن (١٩) .

ويبدو ان العباسيين فشلوا فى ايقاف التوسع الفاطمى ، لذلك حاولوا اتباع بعض الأساليب السياسية لمناهضة المذهب الشيعى للحد من انتشاره ، وكان أهم هذه المحاولات ، محاولة هدم فكرة الدعوة الفاطمية نفسها التى تقوم على الدعوة لامام من آل البيت من نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ) وزوج على بن أبى طالب ومن اسمها اتخذوا لقبهم (٢٠) .

(١٦) انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ج ٢ ص ٥٣١ — ٥٩٩ .

(١٧) انظر : محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، النفوذ الفاطمى فى الشام والعراق .

(١٨) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، ص ١٤ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(١٩) ابن خلدون : المعبر ، ج ٤ ص ٢١٥ .

(٢٠) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ، ج ٢ ص ٥٣٦ — ٥٣٧ .

لذلك أصدر العباسيون عدة فتاوى عبارة عن محاضر فقهاء وقضاء
تفيد أن هؤلاء الفاطميين لا يتصلون بصلة نسب إلى آل البيت ، ولا إلى
فاطمة الزهراء (٢١) ، وتكررت هذه المحاضر ، ويبدو أن هذه الفتاوى
لم تأت بالنتيجة المرجوة ، ولم تتوقف الدعوة الفاطمية ،
ولا انتشارها (٢٢) .

ومن ناحية أخرى رأت الخلافة العباسية محاربة المذهب الشيعي —
الفاطميون — عن طريق إنشاء المدارس وتعميق دراسة المذهب السنّي ،
وكذلك للرد على دعاوى الاسماعيلية الدينية والسياسية (٢٣) ، وتحديثا
المصادر التاريخية عن مجموعة ضخمة من المدارس أنشأت في تلك
الفترة ، من أهمها المدرسة النظامية وغيرها (٢٤) .

ومن ناحية ثالثة ، فقد شجعت الخلافة العباسية العلماء والفقهاء
على الكتابة عن المذاهب والرد على دعاة المذهب الاسماعيلي ، ومن أمثلة
ذلك ما كتبه العالم الفقيه ابو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) عن
« فضائح الباطنية » (٢٥) .

(٢١) من الملاحظ ان هناك فريق من المؤرخين طعن في نسب الفاطميين
إلى آل البيت ، واطلقوا عليهم اسم العبيدين أو المصريين ولم ينفعتوهم
بالفاطميين . وقد نادى البعض ان اصلهم من المجوس .
وعن الآراء التي قيلت في صحة نسب الفاطميين انظر :
المقريزي : اتعاط الحنفا ج ١ ص ٢٣ — ٣٨ ، السيوطي : تاريخ
الخلفاء ، ص ١٤ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٧٥ — ٨٠ ، حسن
ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩ — ٦٤ .

(٢٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ابن ميسر :
اخبار مصر ص ٣٧ .

(٢٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٣٨ ، حسين أمين : تاريخ
العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢١٧ .

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ، وعن
هذه المدارس انظر النعيمي : المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٦٠٧ .

(٢٥) راجع ما كتبه الغزالي في الرد على الباطنية في كتابه : فضائح
الباطنية ص ٩٠ — ١٣١ ، ١٦٩ — ١٩٤ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام =

ويبدو أن هذه الاجراءات التي اتبعتها العباسيون لم تفلح في وقف تيار المذهب الاسماعيلي ، ولا نبالغ اذا قلنا انه ازداد قوه ، لدرجة انه أخذ طريقه الى العراق ذاتها .

وانتهز الخلفاء الفاطميون تشييع البويهيين^(٢٦) ، وحاولوا نشر الدعوة الاسماعيلية بالعراق ، واقامة الخطبة للخليفة الفاطمي بشيراز خاصة زمن ابو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ / ١٠٤٥ — ١٠٤٨ م) وقد بذل داعي دعاة الفاطميين في فارس في تلك الفترة وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، جهوداً كبيرة في هذا السبيل .

ويبدو أن المؤيد نجح في نشر الدعوة الاسماعيلية بالعراق نجاحاً كبيراً ، لدرجة أن الخليفة العباسي القائم (٤٣٢ — ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٥ م) خشي على الدولة العباسية من خطر المؤيد ، وارسل الى ابي كاليجار يطلب منه ضرورة تسليم داعي الفاطميين اليه ، لكن أبو كاليجار لم يعر الخليفة أي اهتمام واستمر المؤيد ينشر دعوتيه ، ومن طريف ما يذكر ان ابا كاليجار نفسه كان يحضر مجالس المؤيد^(٢٧) .

غير أن أشد مراحل الصراع بين العباسيين والفاطميين هو ما ارتبط باسم أبي الحارث البساسيري .

أما ابو الحارث البساسيري هذا فكان أحد القادة الترك الذي قوى شأنه وتحكم في كافة الأمور ببغداد ، بينما لم يكن للخليفة أو الملك

= السياسي ، ج ٤ ص ٢٧١ ، وعن الغزالي راجع : ابن ابي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٩٣ أ .

(٢٦) حكم البويهيون في بغداد من ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ / ٩٤٦ — ١٠٥٥ م ، والمعروف أن البويهيين كانوا شيعة على مذهب الزيدية .

(٢٧) أشار المؤيد في الدين في سيرته أن ابا كاليجار اعتنق الدعوه الفاطمية ، انظر السيرة المؤيدية ، ص ٤٣ — ٤٤ .

وانظر ايضا : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ١٢ — ١٣ .

البويهى (الملك الرحيم) سلطان ولا نفوذ^(٢٨) ، وكما يذكر السيوطى انه دعى على المنابر باسمه ، وكان الخليفة القائم بامر الله العباسى لا يقطع امراً دون^(٢٩) .

ولم يلبث البساسيرى أن اخذ يفكر فى اسقاط الخلافة العباسية والمقبض على الخليفة القائم بامر الله ، وبالفعل فى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م دخل البساسيرى بغداد لتحقيق ذلك ، فلما علم بذلك الخليفة ارسل الى « محمد بن ميكائيل سلطان الغز^(٣٠) المعروف بطغرابك يستنهضه فى القدوم » لينجده من خطر البساسيرى^(٣١) . ولبنى طغرابك دعوة الخليفة على الفور واتجه بجيوشه صوب بغداد ، فدخلها واحرق دار البساسيرى ، الذى لم يستطع الصمود فى وجه جيوش السلاجقة ، فخرج من بغداد واتجه الى الرحبة ، ومن الرحبة راسل ابراهيم أخو طغرابك واطعمه فى السلطنة السلجوقية ، وذلك حتى يثير المتاعب فى وجه طغرابك ويبيد عن بغداد . وكان ابراهيم على عدااء مع أخيه طغرابك ، لذا رحب بدعوة البساسيرى وخرج على طاعة طغرابك ، مما دفع طغرابك الى مغادرة بغداد مؤقتاً ، ليقتضى على عصيان أخيه ابراهيم^(٣٢) .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٠٧ — ٢٠٩ .

(٢٩) السيوطى : الخلفاء ، ص ٦٦٤ ، سهيل زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٥٦ — ٢٦٤ .

(٣٠) الغز oguzlar ، كما يشير الكاتب التركى فاروق سومر ، بمعنى التركمان ، والتركمان هم فريق من الاثراك ، واصبحت كلمة تركمان — غز — فى القرن الخامس الهجرى ، تطلق على كل تركى مسلم يعيش حياة البداوة ، وهم يعيشون فى قبائل . وقد عدد رشيد الدين الهمزانى هذه القبائل بأربعة وعشرين قبيلة ، من بينهم قبيلة قنق ink . وهى التى كان منها السلاجقة .

انظر : Faruke Summer : OGuzr p. 9-25.

حامد زيان : حلب فى العصر التتارى ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٣١) السيوطى : الخلفاء ، ص ٦٦٥ .

(٣٢) السيوطى : الخلفاء ، ص ٦٦٥ ، الخطيب البغدادي : تاريخ

بغداد ، ج ٩ ص ٤٠٠ .

ومن الجدير بالذكر أن المؤيد فى الدين داعى الدعاه التحاز الى جانب البساسيرى . راجع المؤيد فى الدين : السيرة المؤيدية ص ١٠٠ — ١٠١ .

أما البساسيري فرأى ان يتحالف مع قوة أخرى تقوى من نسابه
وتساعده على الصمود في وجه الخلافة العباسية وحلفائها من السلاجقة .
فراسل الفاطميون في مصر ، ورحب الخليفة المستنصر بالله الفاطمي
(٤٢٧ — ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) بذلك ، وارسل الى البساسيري
« الخلع البسني والمال الكثير »^(٣٣) .

وكان لمساعدات الفاطميين للبساسيري أثرها في تقوية جانبه ،
مما دفعه الى ان يخرج عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على رأس قواته حاملا معه
« الرايات المصرية »^(٣٤) ، ودخل بغداد ، وتشابكت قواته مع قوات
الخليفة ، التي هزمت امام جيوش البساسيري ، وأدى ذلك الى أن اسقط
البساسيري خطبة العباسيين ، ودعى للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ،
وزيد في الآذان « حتى على خير العمل » ، كما ألقى القبض على الخليفة
العباسي القائم وحبسه^(٣٥) .

واستمر الخليفة في سجن البساسيري ، حتى تخلص طغرل بك من
مشاكله الداخلية وعصيان أخيه ابراهيم ، وبعدها أرسل الى البساسيري

(٣٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ، وره ٨٦ ا ، السيوطي :
الخلفاء ص ٦٦٥ .

وهناك بعض الآراء تقول ان مكاتبة البساسيري للفاطميين كانت قبل
استدعاء الخليفة العباسي للسلاجقة .

انظر : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، الخطيب البغدادي :
تاريخ بغداد ، ج ٩ ص ٤٠١٠ .

وقد أورد المؤيد في الدين داعي الدعاة نص العهد الذي منحه الخليفة
الفاطمي للبساسيري راجع المؤيد في الدين : السيرة المؤيدية ص ١٢٢ — ١٢٤

(٣٤) المتصود بذلك الرايات الفاطمية . ويذكر ابن أبي الدم الحموي
الى أن البساسيري عندما دخل بغداد كان معه اعلام بيضر مكنوب عاينها اسم
المستنصر بالله أبي تميم . التاريخ المظفر ورقه ٨٤ ا .

(٣٥) السيوطي : الخلفاء ص ٦٦٥ . ويذكر الخطيب البغدادي انه
حضر يوم الجمعة الذي قلع فيه الخطبة للعباسيين فيقول « حضرت ذلك
وسمعتة » .

انظر : ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٨٧ ب .
ويشير السيوطي الى أن الخليفة اثناء حبسه كتب قصته وانفذها
الى مكة فعلق في الكعبة (انظر : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٦٦) .

بأمره بالافراج عن الخليفة ، ويبدو أن البساسيري قد خشي من قوة طغربك فأفرج عن الخليفة وإعاده الى بغداد ، كما أعيدت الخطبة للعباسيين ، ولم يكتف طغربك بهذا ، وإنما أرسل عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩م جيشاً كبيراً لمحاربة البساسيري حيث انزلوا به هزيمة ساحقة « وظفروا به وقتلوه وحملوا رأسه الى بغداد وطيف بها » (٣٦) ♦

هكذا استمر الصراع بين الفاطميين والعباسيين ، حتى كان القضاء على البساسيري ، ولم يكن القضاء على حركة البساسيري نهاية المطاف في ذلك الصراع ، وإنما استمر هذا الصراع قائماً ، وانتقل في المرحلة القادمة الى أرض الشام ، حيث اشتد صراع السلاجقة مع الفاطميين ♦

(٣٦) ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٨٧ ب ، السيوطي : الخلفاء ، ص ٦٦٥ ، حسن احمد محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٥٦٩ — ٥٧٠ .

الفصل الثالث

الفاطميون والتفكك السياسي

(أ) صراع الفاطميين مع السلاجقة

(ب) التنافس بين الوزراء

الفاطميون والتفكك السياسي

(أ) صراع الفاطميين مع السلاجقة

منذ أن دخل طغرل بك بغداد ، وخلع عليه الخليفة ولقبه « بملك المشرق والعرب » أصبح السلاجقة هم حماة الدولة العباسية وأملاكها ، ووقع على عاتقهم عبء الدفاع ضد أعدائها ، وكان الفاطميون يمثلون أحد أعداء الدولة العباسية — كما سبق أن أشرنا — مما أوقعهم في صراع مع السلاجقة .

وإذا كان السلطان طغرل بك لم يتمكن من الدخول في حرب مع الفاطميين ، لأنه توفي بعد دخوله بغداد بقليل (عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م) ، فإن السلطان الب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) رأى ضرورة محاربة الفاطميين ، واسترداد بلاد الشام منهم^(١) . وكان ذلك ايذاناً ببداية الصراع بين السلاجقة والفاطميين حول بلاد الشام ، والذي انتهى باضعاف القوتين ومهد الطريق فيما بعد لاستيلاء الصليبيين على كثير من مدنه بدون عناء .

وبالفعل أرسل السلطان الب أرسلان ابنه ملكشاه على رأس جيشه الى حلب عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ، وكان محمود بن نصر بن صالح بن مرداس العقيلي واليا عليها من قبل الفاطميين ، ويبدو أن محموداً هذا خشى من قوة السلاجقة خاصة وأنه لم تكن لديه قوات كبيرة تمكنه من الصمود في وجههم ، بالإضافة الى أنه أحس أن الدولة الفاطمية تمر بمرحلة ضعف وفقد الأمل في الحصول على مساعدة منها ، لذا فضل

(١) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٥٦ .

ان يعلن انضمامه للسلاجقة ، وحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وأحل محله اسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٢) .

غير أن محمود بن نصر اعاد مرة أخرى الخطبة لفاطميي في العام التالي ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م مما دفع السلطان الب ارسلان الى الزحف بنفسه الى حلب ، وفرض عليها الحصار مدة حتى استسلم محمود ، فأعاده الب ارسلان الى حكمها . ومنذ ذلك الحين دانت حلب والمدن الشمالية للنفوذ السلجوقي (٣) .

أما جنوب بلاد الشام ، فقد توجهت الجيوش السلجوقية اليه ، واستطاع الأتابك أرتغر الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس وغيرها من مدن فلسطين عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، كما تابع فتوحاته في الجنوب واستولى على دمشق وما جاورها من أعمال (٤) . وبعد أن أتم أرتغر فتوحاته في الجنوب ، أصبح الجنوب خاضعا للنفوذ السلجوقي ، وتقلد حكمه القائد أرتغر نفسه (٥) .

غير أن الب ارسلان لم يلبث ان انشغل عن أمر بلاد الشام في السنوات القليلة القادمة بحربه مع الامبراطور البيزنطي رومانوس

(٢) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٦٠ ، عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٥٦ . ويذكر السيوطي الى ان محموداً هذا خطب للقائم ومن بعده الألب ارسلان وذلك « لما رأى قوة دولتهما وادبار دولة المستنصر » انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٦٧ .

(٣) ابن أبي الدم الحموي : التاريخ المظفر ، ورقه ١٨٨ ، محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ص ٢٦٢ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٠ ، سهيل زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦٥ — ١٥٨ .

(٥) ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ١٨٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣ — ٢٥ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٠٢ ، ٢٢٨ .

الرابع ، الذى خرج على رأس جيشه عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م لمصاربة
المسلاجقة ، الا أن الب ارسلان انزل به هزيمة ساحقة بملاذجرد ،
ووقع الامبراطور نفسه فى الأسر^(٦) .

ثم كانت وفاة السلطان الب ارسلان فى العام التالى (٤٦٥ هـ /
١٠٧٢ م) واعتلاء ابنه ملكشاه عرش السلطنة (٥٦٥ — ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ —
١٠٩٢ م) ، وكان من أهم ما انشغل به ملكشاه هو بسط سيطرته على
معظم اجزاء الشام والقضاء نهائياً على النفوذ الفاطمى مما أدى الى
تجدد الصراع مرة أخرى بين الفاطميين والمسلاجقة .

* * *

اشتد الصراع بين المسلاجقة والفاطميين بعد أن تولى السلطان
ملكشاه السلطنة السلجوقية ، اذ أخذ على عاتقه مهمة اتمام السيطرة على
بلاد الشام وانتزاعها من يد الفاطميين ، وقام بتشجيع القائد أقتسز
بالاستمرار فى محاربة الفاطميين ، ويبدو أن الانتصارات التى أحرزها
أقتسز على حساب الفاطميين واستيلائه على فلسطين ودمشق ، شجعته
على التفكير فى السير صوب الديار المصرية لفتحها وانتزاعها من يد
الفاطميين ، غير أن الوزير بدر الجمالى — وزير الخليفة المستنصر بالله
الفاطمى — ، انزل به هزيمة ساحقة ، فعاد أقتسز بمن بقى معه من جنود
الى دمشق^(٧) . وقد أدت هذه الهزيمة التى لحقت بأقتسز الى استهانة
أهالى الشام به ودفعهم ذلك الى اعادة الخطبة من جديد للفاطميين^(٨) .
فما كان من السلطان ملكشاه الا ان قرر عزل أقتسز عن حكم بلاد الشام

(٦) عن أحداث هذه الفترة انظر :

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ،
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، لويس ارشيبالد : القوى البحرية ،
ص ٣٦٩ — ٣٧٠ ،

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٩ — ١١١ .

(٨) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١١١ .

بعد فشله فى تصفية النفوذ الفاطمى ، وعهد بحكمه الى خيه تاج الدولة
أبى سعيد تتش « وأقطعه الشام وما يفتح من تلك النواحي » (٩) .
وأسرع تتش بدخول دمشق وأخذها من أئسز ، ولم يكتف بذلك وإنما
فكر فى التخلص منه عن طريق القتل ، حتى يصفى له حكم الشام كله ،
ولا ينازعه فيه منازع ، وبالفعل انتهى امر أئسز بالقتل ، وبذلك انفرد
تتش ببلاد الشام ، وأخذ فى وضع يده على كافة حصونه مثل بزاعه
والبيرة وانطرطوس (١٠) ، كذلك بذل تتش عدة محاولات للاستيلاء على
حلب ، فقد بادر تتش بالزحف على حلب لضمها الى سلطانه ، غير أن
اهلها رفضوا تسليمها له ، وكتبوا الى مسلم بن قريش العقيلي ليسلموه
حلب ، فأسرع مسلم وتسلم حلب عام ٤٧٣ هـ / ١٠٧٩ م ، والمتف
حول مسلم مجموعة كبيرة من القبائل العربية مثل بنى نمير والمولده
وبنى شيبان ، وبعث مسلم الى السلطان ملكشاه يخبره بتفاصيل
ما حدث ، وتعهد له بحفظ حلب ، واستسمحه حكمها نيابة عنه ، ويبدو
أن ملكشاه كان يخشى من اتساع سلطان أخيه تتش وزيادة اطماعه ،
لذلك فضل أن يكون حكم حلب لمسلم هذا بدلا من أن يتولى تتش حكمها .

واذا كان تتش قد انصاع لأوامر السلطان وكف يده عن حلب ،
فانه وبعد مرور خمس سنوات أخذ يتطلع للاستيلاء عليها ، وذلك عندما
خرج على السلطنة السلجوقية أحد أبناء البيت الأيوبي وهو سليمان
ابن قتلмыш ، الذى انزل الهزيمة بمسلم العقيلي وقتله وفرض الحصار
على حلب ، فما كان من تتش الا ان جهز جيشه واتجه به صوب حلب ،
ليضع حداً لتوسعات سليمان بن قتلмыш ، وبالقرب من حلب فى موضع
يقال له عين سلم انزل تتش هزيمة ساحقه بجيوش سليمان بن قتلмыш ،

(٩) ابن ابى الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٨٩ ، (مخطوط) ،
النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقه ٣١ ، (مخطوط) ، سعيد عاشور : الحركة
الصليبية ج ١ ص ٩٩ .

(١٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٢ ، ابن ابى الدم :
التاريخ المظفر ، ورقه ٨٩ ب (مخطوط) .

وقتل سليمان نفسه في هذه المعركة ، ودخل تنتش حلب بعد ذلك وبسط نفوذه عليها (١١) . غير أن هذه النتيجة التي وصلت اليها أحداث حلب لم ترخص السلطان ملكشاه الذي خشي من اتساع نفوذ أخيه تنتش ، لذلك سار بجيوشه متجها الى بلاد الشام لتصحيح أوضاعه ، وعندما قاربت جيوشه مشارف الشام رفع تاج الدولة تنتش يده عن حلب وعاد الى دمشق ، في حين دخلت جيوش ملكشاه حلب ، وأقر على حكمها قسيم الدولة آق سنقر الحاجب عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (١٢) .

* * *

وهكذا استمر الصراع بين الفاطميين والسلاجقة قائما ببلاد الشام قبيل وصول الصليبيين ، ليجعل من بلاد الشام مرتعا خصبا للفرقة والانقسام ، وليزيد من تفككها وضعفها ، مما سهل بعد ذلك على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها . وهناك من الأراء ما يفيد انه نتيجة لذلك الصراع الذي نشب بين الفاطميين والسلاجقة ببلاد الشام ، وبسبب ضعف الدولة الفاطمية ، وتخوفها من السلاجقة ، وزحفهم على الديار المصرية ، وتكرار ما قام به أقتسز من قبل ، أرسلوا - أي الفاطميين - الى الغرب الأوروبي يستنجدون بهم ، ويدعوهم للحضور الى بلاد الشام ويأخذوا بيت المقدس لكي يكونوا حاجزا بينهم وبين السلاجقة (١٣) .

(١١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ - ١١٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٧٠ ،

Setton : Hist of the Crusades, vol. I , p 160.

(١٢) هو قسيم الدولة آق سنقر الحاجب بن آل توغان من قبيلة سائب بن إحدى القبائل التركية ، وكان مملوكا للسلطان الب أرسلان ، وتربى مع ولده ملكشاه ، ولذلك رعى له ملكشاه هذه الفتاة ، بعد أن تولى السلطنة ، وجعله حاكما على حلب كما تقدم ، ويشير ابن الاثير الى أن الذي أشار على ملكشاه بتولية آق سنقر حكم حلب هو وزيره نظام الملك وذلك لكي « يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، وليبعده عن خدمة السلطان » ، والمعروف ان قسيم الدولة هذا هو اصل البيت الزنكي ، فهو والد عماد الدين زنكي وجد نور الدين محمود .

انظر : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٤ .

(١٣) انظر : ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٦ ، السيوطي : تاريخ

الخلفاء ، ص ٦٧٩ .

وسواء صدقت هذه الأقوال أم لم تصدق ، فمن الثابت تاريخياً أن العلاقة بين الفاطميين والسلاجقة كانت علاقة سيئة الغاية ، مملوءة بالحق والكراهية ، وذلك نتيجة ذلك الصراع القائم بينهما ، ولا أدل على ذلك من تلك السفاره التي أرسلها الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي إلى الصليبيين أثناء محاصرتهم انطاكيه ، وقد عرض عليهم الأفضل في تلك السفاره عرضاً فاطمياً للانتقام من السلاجقة ، وهو أن يتحالف الطرفان - الفاطمي والصليبي - في القضاء على قوة السلاجقة ، واقتسام ممتلكاتهم بالشام فيما بينهم ، على أن يكون القسم الشمالي (سوريا) للصليبيين ، بينما يكون القسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين^(١٤) .

وإذا كان هذا العرض الفاطمي يوضح مدى جهل الفاطميين بطبيعة الحروب الصليبية ، والهدف من ورائها ، وغايتها في الاستيلاء على بيت المقدس ، ومحاربة المسلمين أينما كانوا ، فإنه يوضح لنا كذلك مدى ما وصل إليه حال المسلمين من فرقة وانقسام ، والنتائج التي تترتب على ذلك الصراع ، وهو الانتصار بالصليبيين والاستعانة بهم لضرب قوى المسلمين . ومن ناحية أخرى يفسر لنا الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نجاح الصليبيين في الاستيلاء على ديار المسلمين .

(١٤) عن تفاصيل ذلك انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(ب) التنافس بين الوزراء

اشتهد التنافس بين الوزراء وكبار الأُمراء بمصر في أواخر العصر الفاطمي ، وكان لهذا التنافس والصراع آثار سيئة على الحياة السياسية بمصر ، ومن أمثلة ذلك الصراع ما حدث بين شاور الذي استطاع التخلص من العادل بن الصالح طلائع بن رزيق عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٣ م وتولى الوزارة للخليفة المعاضد الفاطمي وتلقب بأمر الجيوش ، وضرغام الذي خرج عليه في العام التالي (٥٥٧ هـ / ١١٦٣ م) ، واستطاع التغلب عليه ، مما دفع شاور إلى الهرب إلى دمشق طالباً النجدة من نور الدين محمود * أما ضرغام فعاد بعد أن تتبع شاور إلى أن خرج من مصر ، ليتولى وزارة المعاضد (١٥) *

وتقابل شاور مع نور الدين محمود في دمشق ، ووصف له حال مصر وما وصلت إليه من الضعف والتفكك « وضمن له أن يبعث معه عسكرياً أخذها له » (١٦) ، وأن يكون نائبه بها ، كما تعهد له بدفع ثلاث خراج مصر إذا أعاده إلى الوزارة (١٧) *

واستجاب نور الدين محمود بعد تردد لنداء شاور ، خاصة بعد أن علم بتطلعات عموري الأول ملك بيت المقدس في الاستيلاء على مصر ، منتهزاً فرصة الضعف التي تمر بها ، ولم يكن من المنتظر أن يترك نور الدين محمود مصر تسقط في يد الصليبيين (١٨) *

(١٥) ابن أبي الدم الحموي : التاريخ المظفر ، ورقه ١٠٠ ب .

(١٦) ابن أبي الدم : المصدر السابق ، ورقه ١٠٠ ب .

(١٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٣٤٦ .

(١٨) ابن أبيك : درر البتجان و غرر تواريخ الزمان ، ج ٤ ورقه ٣٦٠ (مخطوط) ، إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ورقه ٥ (مخطوط) .

ولم يلبث نور الدين أن كلف أسد الدين شيركوه بالمسير مسحبة شاور إلى مصر عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، وقد سحب أسد الدين في هذه الحملة ابن أخيه صلاح الدين بن نجم الدين الأيوبي ، واتجهت حملة أسد الدين صوب مصر ، حيث انزلت هزيمة ساحقة بذلك الجيش الذي أرسله ضرغام لصد حملة أسد الدين ، واستولت على بلبيس * ولما علم ضرغام بأنه لا طاقة له بجند نور الدين محمود أرسل مستنجدا بعموري الأول الصليبي ، واعدأ إياه بتسليمه مصر ، غير أن آمال ضرغام لم تتحقق ، إذ قتل ضرغام بعد قليل ، وتخلّى عنه سائر الجند والأهالي وكذلك الخليفة ، واستعاد شاور الوزارة (١٩) .

غير أن شاور حنث في وعده لنور الدين محمود ورفض دفع الأموال التي اتفق عليها ، مما دفع سد الدين إلى استخدام القوة لإرغامه على تنفيذ تلك الوعود ، فما كان من شاور إلا أن لجأ إلى الصليبيين واستنجد بعموري الأول ، ووعده بدفع مبلغاً كبيراً من المال (٢٠) .

وقد رحب عموري كل الترحيب بطلب شاور ، وزحفت جيوشه على الفور إلى مصر ، واستقبله شاور استقبالا حافلا ، واتجهت سوياً لمحاربة أسد الدين الذي تحصن ببلبيس ، وفرض الحصار على بلبيس ، وأخيراً تم الاتفاق على خروج كل من أسد الدين وعموري من مصر ، وفق اتفاقية عقدها شاور معهما (٢١) .

(١٩) ابن أبي الدم : المصدر السابق ، ورقه ١٠١ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٠) بشير ابن أبي الدم إلى أن شاور تعهد بدفع مئتي أربعمائة ألف دينار مصرية لعموري إذ هو أخرج أسد الدين من مصر .

انظر : التاريخ المظفر ، ورقه ١٠١ ،

william of Tyre : Allhist of Deeds Done beyond the sea, vol, I p . 295 - 320.

(٢١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٣٤٧ .

وهكذا كان للصراع الذى تنقشى فى أرجاء مصر بين الوزراء وكبار الأمراء ، أثراً سيئته على مصر ذاتها اذ طمع فى الاستيلاء عليها الصليبيون * والحقيقة أن الصليبيين كانت لهم اطماع قديمة فى مصر ، فمنذ الحملة الصليبية الأولى فكر بلدوين الأول ملك بيت المقدس فى الاستيلاء عليها عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، غير ان بلدوين توفى وهو فى الطريق اليها ، ثم ازدادت فكرة الاستيلاء على مصر لدى الصليبيين خاصة عندما ضاق عليهم الخناق ببلاد الشام بعد أن أتم نور الدين محمود توحيد الجبهة الاسلامية ، وانزل بهم عدة هزائم وانتزع منهم كما انزع والده عماد الدين من قبل مجموعة من المدن والحصون (٢٢) * لذلك حاول بلدوين الثالث عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م غزو مصر منتهازة فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز، غير أن الادارة الفاطمية استطاعت ان تثنيه عن تلك المحاولة مقابل تعهدا بدفع مبلغاً من المال سنوياً (٢٣) *

واذا كان كل من أسد الدين وعمورى الأول قد خرجا من مصر وفق الاتفاق السابق ذكره ، الا ان الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان لوجودهم بمصر اثناء الحملة السابقة ، ووقوفهم على أحوال مصر السياسية والعسكرية والاقتصادية اثره فى تشجيعهم بعد ذلك فى معاودة الرجوع اليها ، فقد قام أسد الدين (٢٤) ، وعمورى الأول بحملات

(٢٢) حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ، ص ٧٠ — ٧١ *

(٢٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٦١ ،
william of Tyre : Ahist of Deeds , vol, II, pp. 235 - 295.

(٢٤) توجد عدة أسباب دفعت نور الدين بأن يسمح لاسد الدين بالقيام بحملاته على مصر منها الرغبة فى الانتقام من شاور الذى استنجد بالصليبيين ، وسرعة الاستيلاء عليها قبل أن يسبقهم الصليبيين الى ذلك ، واستعداد شاور بالسلطة ومكاتبه أهل القصر لنور الدين محمود للحضور الى مصر وتخليصهم من شاور وظلمه ، بالإضافة الى الرغبة فى القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية ، ومما تذكره المصادر ان الخليفة العباسى المتقى لامر الله ارسل الى نور الدين محمود عام ٥٤٩ هـ يطلب منه السير الى مصر والاستيلاء عليها ، وكتب له عهدا بحكمها .

أخرى على مصر بقصد الاستيلاء عليها (٢٥) ١ •

وتتابعت الحملات بعد ذلك حتى استطاع شيركوه فى حملته الثالثة (٢٦) عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م — وكان بصحبته ايضاً ابن أخيه صلاح الدين — القبض على زمام الأمور بمصر ، وتولى وزارة العاضد ، والتخلص من ثاور عن طريق القتل (٢٧) •

وبذلك انتهى الصراع بين الوزراء الفاطميين ، والذي كان من اهم نتائجه طمع الصليبيين فى الاستيلاء على مصر •

* * *

= انظر : أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٤٢ ، السيوطى : الخلفاء ص ٧٠٠ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٨ •

(٢٥) يذكر ابن أبى الدم احموى فى احداث عام ٥٦٤ هـ « فيها توجه الفرنج الى مصر وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معانيها وجهابها فطمعوا فى أخذها » •

التاريخ المظفرى ، ورقه ١٠١ ب) •

(٢٦) قام أسد الدين شيركوه بحملته الثانية على مصر عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م •

وعن حملات أسد الدين أنظر :

ابن أبى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ١٠١ ، ١٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٠٥ ،

(٢٧) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٩ — ٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٠ — ١٧١ ، ابن الراهب : تاريخه ، ص ١٨٧ •

الفصل الرابع

الصراع زمن الاتابكة

- (أ) حملة كربوغا والصراع بين الأمراء *
- (ب) تحالف أمراء المسلمين مع الصليبيين *
- (ج) فشل حملات مودود وبرسق *
- (د) تحالف حكام دمشق مع الصليبيين ضد زنكي *
- (هـ) دبيس بن صدقه والتمزق الداخلي *
- (و) تنافس الأمراء بهاب عقب وفاة نور الدين محمود *
- (ز) موقف اتابكة الموصل من صلاح الدين *

الصراع زمن الانطاكية

(١) حملة كربوفا والصراع بين الأمراء

بعد وصول الصليبيين الى انطاكية وفرضهم الحصار عليها ، أرسل صاحبها ياغي سيان يستنجد بمعظم القوى الاسلامية المجاورة ، فيما عدا رضوان صاحب حلب ، وذلك لحدوث الخلاف فيما بينهم ، على الرغم من أن انطاكية من الناحية الشرعية عملا من أعمال حلب أي أن ياغي سيان تابعاً لرضوان !! كما أرسل ياغي سيان كذلك الى السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠٤ م) يستنجد به وبأتابكه كربوفا حاكم الموصل . ويبدو أن السلطان كربوفا قد أدرك مؤخراً مسؤوليته في الدفاع عن بلاد الشام وصد العدوان الصليبي بصفتة حامياً لأملاك العباسيين ، لذلك أصدر أوامره لقائده كربوفا حاكم الموصل ، في تجهيز جيش والمضى به صوب بلاد الشام لصد هجمات الصليبيين ، واهمه بما يلزم من جند وأسلحة ، كذلك استعان كربوفا بجنود من الارائقة من شمال الجزيرة (١) .

وإثناء سير كربوفا الى الشام انشغل باستخلاص الرها من يد الصليبيين ، مما أتاح الفرصة للصليبيين المحاصرين لانطاكية من دخولها عن طريق الخدعة (٢) . ولما علم بذلك كربوفا أسرع في السير الى انطاكية .

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٨ .

(٢) عن هزم الاحداث انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ابن العديم : زبد حلب ، ج ٢ ص ١٣٥ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٩ .

وفى البداية استبشر حكام الشام بحملة كربوغا ، وعقدوا معه اتفاقاً بمرج دابق لتوحيد صفوفهم امام الصليبيين ، ضم دقاق بن نتش صاحب دمشق وأتابكه طغتكين ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسكمان بن ارتق ، وجناح الدولة بن الحسين صاحب حمص . وقد رفض رضوان صاحب حلب الانضمام الى هذا الحلف^(٣) وذلك لتخونه من عدوه القديم دقاق صاحب دمشق من جهة ، وخشيته من اطماع كربوغا فى حلب من جهة ثانية^(٤) ، ولعدائه لجناح الدولة بن الحسين من جهة ثالثة .

وهكذا نجد الآثار السيئة للصراع بين القوى الاسلامية وما نتج عنه من انقسام وتفكك ، تسيطر على كل أنحاء الشام ، فى حين كان من الواجب على هؤلاء القادة التخلّى عن أحقادهم وتوحيد صفوفهم للتصدى لخطر الصليبيين .

* * *

وبعد أن وصل كربوغا وحلفائه الى انطاكية ، وجد الصليبيون بداخلها^(٥) ، ففرض عليهم الحصار ، ولم تكن قلعتها قد سقطت فى يد الصليبيين ، وانما كانت حتى تلك اللحظة فى يد الحامية الاسلامية ، ومعنى ذلك أن الصليبيين أصبحوا محصورين من الداخل بالحامية

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩١ .

(٤) يرى رنسيمان أن كربوغا كان يتطلع الى الاستيلاء على حلب ، عن طريق استيلائه على انطاكية ، غير أن هذا الأمر لم يرد ذكره فى المصادر الاسلامية .

Runciman : Hist of the Crusades vol 2, p 213.

(٥) استولى الصليبيون على مدينة انطاكية عن طريق خيانة نيروز الارمنى ، عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، وقتل ياغى سيان ، كما قتل الصليبيون كل من صافوه من المسلمين سواء كانوا أطفالاً أم نساء .

انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ .

الاسلامية التي بالقلعة ، ومن الخارج بقوات كربوغا وحلفائه^(٦) .
وأخذت وطأت الحصار تشتد على الصليبيين بأنطاكية حتى « عدم
القوت عندهم واكلوا الميتة »^(٧) . وساء موقفهم كثيراً .

غير أنه في الوقت الذي أخذ فيه الصليبيون يستعيدون قوتهم
ويرفعون من روح جنودهم المعنوية خاصة بعد أن فقدوا الأمل في
مساعدة الامبراطور البزنطي لهم^(٨) . اذ بالمعسكر الاسلامي يزداد
تفككاً .

وعندما أحس كربوغا بضعف مركزه أرسل الى رضوان صاحب
حلب كي ينضم اليه ، غير أن رضوان رفض رفضاً تاماً الاشتراك مع
كربوغا . ويبدو أن محاولات كربوغا لضم رضوان اليه قد اغضبت
خصمه القديم دقاق ، الذي فضل العودة الى دمشق خوفاً من مهاجمة
الفاطميين لدمشق بعد استيلائهم على فلسطين ، وفي نفس الوقت
تخوف جناح الدولة بن الحسين صاحب حمص من الأرائقه ، كما أن سوء
تصرف كربوغا أدى الى زيادة الفرقة والانقسام داخل المعسكر
الاسلامي^(٩) .

وهكذا أخذ الحلف الاسلامي يتزعزع بسبب الصراعات والأحقاد
التي تفشت بين الأمراء ، مما كان له عواقب وخيمة على مستقبل الدول
الاسلامية .

وحدث، في تلك الأثناء أن طلب الصليبيون من كربوغا الأمان

(٦) ابن العديم المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٦ .

(٧) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٧ .

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٠٨ ،
Runciman : Hist of the crusades, vil 1 , p 239 - 245.

(٩) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٦ ، ابو الفدا : المختصر
ج ٢ ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١
ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

والاتفاق ورفع الحصار ، فرفض كربوغا ذلك ، مما دفعهم الى الخروج من أنطاكية على شكل جماعات ، وأشار أحد حلفاء كربوغا وهو وثاب بن محمود أحد زعماء القبائل العربية على كربوغا بمهاجمتهم وهم على تلك الحالة^(١٠) ، غير أن كربوغا رفض ذلك واستهان بأمرهم ، وأصر على محاربتهم مجتمعين ، وبالطبع ان دل هذا على شيء فانما يدل على سوء تصرف وعدم ادراك الأمور ، لأنه ما أن اجتمع الصليبيون خارج أنطاكية حتى انزلوا هزيمة ساحقة بجيش كربوغا الذي انزالاً بالحق والقتافس ، واضطر كربوغا الى العودة الى الموصل دون أن يحقق شيئاً ، سوى انتصار الصليبيين الساحق على جيوش المسلمين ، وقد صار الصليبيون منذ ذلك التاريخ هم سادة شمال الشام^(١١) !! واصح الطريق الى بيت المقدس مفتوحاً امامهم *** وذلك بفضل الصراع والتنافس بين الأمراء المسلمين .

* * *

(١٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩١ .

(١١) عن هذه الاحداث راجع : ابو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ٢١١ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ ، ابن أبي الدم : التاريخ المظفر ورقه ٩٢ أ ، ب ،

william of Tyre : Ahist of Deeds vol I — p . 225 - 261.

(ب) تحالف أمراء المسلمين مع الصليبيين

لا شك في أن زيادة الفرقة والانقسام بين المسلمين كانت من مصلحة الصليبيين ، لذلك عمل الصليبيون دائماً على تغذية العداء بين القادة المسلمين ، وإثارة الصراع والمنافسة بينهم ، وذلك حتى يتمكنوا من تثبيت أقدامهم ببلاد الشام ، خاصة في بداية استقرارهم بأراضيهم •

ومن أمثلة ذلك ما حدث عام ٤٩١ / ١٠٩٨ م عندما خرج عمر والن عزاز عن طاعة سيده رضوان^(١٢) ، وكان ذلك بتشجيع من الصليبيين ، وقد وصلت درجة الانحطاط لدى الصليبيين أنهم استخدموا إحدى نساءهم في تسهيل إقامة العلاقات الودية بين عمراً هذا وبين الصليبيين^(١٣) •

وعندما علم رضوان بخروج عمراً هذا عن طاعته ، جمع جيشه وتقدم صوب عزاز لاعادته الى صوابه ، وهنا استنجد عمر بحلفائه من الصليبيين خاصة جود فرى دي بوايون^(١٤) ، ولم يتردد جود فرى في تلبية نداء عمر ، كذلك انضم اليه ريموند التولوزي وبعض جنود الرها ، فلم يسع رضوان ازاء هذا الحشد الصليبي الا ان رفع الحصار عن عزاز وعاد الى حلب •

أما الصليبيون فقد كسبوا كثيراً من وراء هذا الصراع ، اذ استولوا على مجموعة كبيرة من الغنائم والأسلاب ، سواء كان ذلك من جيش رضوان ام من عزاز نفسها ، اما الغنيمة الكبرى فقد جناها جود فرى ،

(١٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ •

(١٣) Runciman : Hist of the Crusades, vol F, p 257.

(١٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ •

وذلك عندما أقسم له عمر بيمين الولاء وأصبح تابعاً له ، ودخلت عزاز
فى ممتلكات جود فرى ، وبعدها أقر جود فرى عمراً حاكماً عليها (١٥) .

والحقيقة ان الخوف والتشتت والصراع بين مختلف القوى
الاسلامية لم تدفع عمراً بمفرده الى الارتقاء فى أحضان الصليبيين ،
وانما كان هذا هو حال كثير من الأمراء المسلمين ، ويتضح لنا هذا بجلاء
من استعراض حملتى مودود وبرسق على بلاد الشام .

* * *

(١٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٣ ،
Runciman : Hist of the Crsades vol I , p 354.

(ج) فشل حملات مودود وبرسق

بعد استيلاء الصليبيين على كل من انطاكية والرها ، أخذوا في ممارسة عدوانهم على باقى القرى والضياح الاسلامية بشمال الشام ، ولم يكن فى مقدور حكام تلك البلاد الزود عن بلادهم ، لذلك اكتفوا بدفع الأموال للصليبيين اتقاء شرهم .

وقد دفع هذا الوضع بعض أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء الى الذهاب الى بغداد للاستنجاد بالخليفة العباسى والسلطان السلجوقى^(١٦) ، وبعد أن شعر السلطان السلجوقى بما يعانونه من ظلم وعدوان الصليبيين ، قرر ارسال جيشاً الى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين واستخلاصها من ايديهم ، وجعل رأسه هذا الجيش الى شرف الدين مودود صاحب الموصل^(١٧) ، وخرج بصحبة مودود أحمد يل القطبى الكردي ، وقطب الدين سكرمان صاحب ديار بكر ، والأمير ايلغازى صاحب ماردين^(١٨) .

واتجه مودود على رأس هذا الجيش المضخم الى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين ، فما كان من الصليبيين الا أن اخذوا فى الاستعداد

(١٦) يشير المؤرخون الى انه لما كانت « أول جمعه من شعبان عام ٥٠٤ هـ حضر رجل من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء الى جامع السلطان ببغداد ، فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه » ، وفى الجمعة الثانية ذهبوا « الى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والفحيب » .

انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ، سببط ابن الجوزى : مرآة الزمان Rec. Hist . or . T 3, p 541. ، ابن الفرات : تاريخ الامم والملوك ، ج ١ ص ٤٧ .

(١٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ ، Smial : Crusading warfare , p 55.

(١٨) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٥٨ ، سببط بن الجوزى : مرآة الزمان Rec. Hist . or . T 3, p 542. ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٣ ورقه ٦٥٢ - ٦٥٣ . (مخطوط)

لمواجهة جيش مودود ، وذلك بتحصين قلاعهم وحشدتها بالرجال
والسلاح . كما ان المصلييين اتبعوا أسلوباً آخر فى التصدى لحملة
مودود ، وهو أسلوب احداث الموقعية فى صفوف جيش مودود ، وإشارة
روح المنافسة فيما بين قواده . والواقع ان هذا الأسلوب الأخير هو
الذى أدى الى فشل حملة مودود كما سيتضح لنا بعد ذلك .

فبعد أن نزل مودود على تل باشر — وكانت تحت سيطرة
جوسلين وفرض عليها الحصار ، ولم يكن لدى جوسلين من القوة ما
يستطيع بها منازلة مودود واجباره على رفع الحصار عنها ، لذا عمد
الى أحداث الفرقة والانقسام داخل صفوف جيش مودود واتبع
أسلوب الحيلة لرفع الحصار عن تل باشر . وذلك عندما انتهز جوسلين
فرصة مرض سكران القطبى صاحب ديار بكر وارمينيه واخلط ، فأرسل
سرا الى أحمد يل الكردى « وأخذ يلاطفه بمال وهدية » (١٩) ، وأطمعه فى
بلاد سكران القطبى ، ووعد به بأن يساعد فى تحقيق ذلك بشرط رفع
الحصار عن تل باشر (٢٠) . ويبدو أن هذه الفكرة حازت قبولا لدى
أحمد يل ، واتفق مع جوسلين على تنفيذها ، عاقداً الأمل فى الاستيلاء
على أملاك سكران القطبى المريض ، ومعتمداً فى ان تساعد رباط
المصاهره الذى كان بينه وبين سكران عند السلطان السلجوقى فىوافق
على تسليم ممتلكات سكران اليه ، وفى نفس الوقت رأى أحمد يل ضرورة
محالفة جوسلين للاستعانة به فى تحقيق أمله فى الاستيلاء على أملاك
سكران اذا اقتضت الظروف استخدام القوة .

وتنفيذاً للاتفاق المعقود بين أحمد يل وجوسلين ، ألح أحمد يل
على مودود فى رفع الحصار عن تل باشر وتركها وشأنها ومتابعة السير
الى الشام ، حيث كان رضوان — صاحب حلب — فى تلك الأثناء واقعاً

(١٩) ابن القلانسي : دین تاریخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢٠) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، سبط بن الجوزي :
مرآة الزمان Rec . Hist . or . T3 , p 542.

تحت ضغط الصليبيين مما دفعه الى الاستنجاد بمودود^(٢١) ، واضطر
مودود الى الاذعان لالاحاح أحمد يل ورفع الحصار عن تل باشر مكرها ،
وتابع مسيره الى الشام^(٢٢) .

وعلى هذا النحو يتضح لنا نجاح الصليبيين فى احداث الفسقة
والانقسام داخل صفوف المسلمين ، ويتضح كذلك أن الفائز الوحيد هم
الصليبيون ، الذين نجحوا فى تثبيت اقدامهم ببلاد الشام والجزيرة
بفضل تلك تلك الفرقة والانقسام التى انتشرت بين صفوف المسلمين .

* * *

أما موقف رضوان من حملة مودود ، فهو يوضح لنا توضيحاً كبيراً
ما وصل اليه حال القوى الاسلامية من تمزق واختلاف ، رالى أى حد
بلغ الصراع والمنافسة فيما بينهم .

ذلك انه ما أن وصلت جيوش مودود وحلفائه الى حلب ، تلبيبة
لاستغاثة رضوان نفسه ، الا واغلق رضوان أبواب حلب فى وجه تلك
الجيوش ، وقد اشار الى ذلك صراحة كلا من ابن القلانسي والعظيمي
وهما مؤرخان معاصران لتلك الأحداث^(٢٣) .

(٢١) كان الملك رضوان قد أرسل الى مودود عدة رسائل يطلب منه
فيها ضرورة التحضر اليه ونجدته .

انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٥٩

(٢٢) يبدو أن مودود اضطر الى موافقة أحمد يل والاستجابة لطلبه
فى رفع الحصار عن تل باشر ، وذلك لان أكثر العساكر والجنود فى جيش
مودود كانت تابعة لأحمد يل ، وخشى مودود عاقبه انقسام أحمد يل عليه .

انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢٣) فيذكر مثلاً ابن القلانسي « واغلق — أى رضوان — ابواب حلب
فى وجوههم واخذ الى القلعة رهاين عنده من أهلها لئلا يسلموها »
انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ ، العظيمي : تاريخ العظيمي
Jornol Asiatique, Tccxxx, p 481.

ويتعجب المرء من المدافع الذى أدى برضوان الى هذا الموقف ، وهناك بعض الآراء التى تحاول المدافع عن هذا الموقف بتخوف رضوان مما تعيظه جيوش مودود من فساد وخراب فى حلب ، خاصة بعد ما فعلوه من سلب ونهب بعض أعمال وقرى حلب اثناء زحفهم اليها « وفعلوا اقبح من فعل الفرنج » (٢٤) * غير أن هذا ليس سبباً كافياً يدفع رضوان الى اغلاق أبواب حلب فى وجه مودود ، الذى حضر لمحاربة الصليبيين ، وفى وقت كانت حلب محتاجة فيه فعلاً الى من يدافع عنها ضد الصليبيين ، ولا ننسى أن الذى دفع السلطان السلجوقى فى ارسال مودود كان صرخات واستغاثة أهل حلب انفسهم * أما السبب الحقيقى فيعود الى تخوف رضوان على ملكه من تلك الجيوش السلطانية ، فان جيش مودود ما هو الا جيش السلطان السلجوقى ، وقد حضر الى الشام بأمر من السلطان ، وهو يحارب باسمه ، ويبدو أن رضوان خشى اذا دخل مودود حلب أن يسلمها أهلها اليه ، خاصة بعد أن أفسد رضوان أمور حلب بسوء سياسته وتصرفه ، واضعف من شأن حلب ، وجعلها تحت وصاية الصليبيين ، وتخوفه المستمر من محاربتهم ، لذلك أغلق أبواب حلب فى وجه مودود ، ومما يؤكد تخوفه من تسليم أهل حلب مدينتهم لمودود أنه أخذ منهم رهائن الى القلعة « لئلا يسلموها » على حد تعبير ابن القلانسى (٢٥) ، وهكذا نجد رضوان يضحى بمصالح المسلمين من أجل مصلحته الخاصة ، والاحتفاظ بملكه * أما السبب الذى دفع رضوان الى الاستنجاد بمودود عندما كان الأخير بتل باشر ، فهو أشبه بالمناورة السياسية ، وذاك فى محاولة من رضوان لابعاد خطر الصليبيين وهجماتهم المستمرة على حلب وأعمالها ، خاصة خطر تانكرد الذى كان دائم الاغاره على أعمال حلب ، واعتقد رضوان أن مودود لن يلجئ استغاثته بهذه السرعة وذاك لانشغاله بمحاصرة تل باشر ، غير الأمور سارت على عكس ما يثبته رضوان ، حيث أسرع مودود بالسير

(٢٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ ، سبط من الجوزى :

مرآة الرمان (Rec. Hist. or T3 , — 542)

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٧٥

الى حلب ، بعد أن ألح أحمد يل الكردي في رفع الحصار عن تل باشر ،
وهنا أسقط في يد رضوان ، الذي لم يجد سوى اغلاق حلب في وجه
مودود ، وحتى يصرف مودود نهائياً عن حلب « أطلق — أي رضوان —
الحرامية في أخذ من يظفر به من اطراف العسكر » (٢٦) .

وهكذا يتضح لنا مدى تخبط القوى الاسلامي ببلاد الشام ،
وتحصارها مع بعضها البعض .

* * *

ثم كانت نهاية مودود بالقتل بتحريض من أحد أمراء الشام ، لتؤكد
حقيقة الصراع بين مختلف القوى الاسلامية .

فبعد أن اغلق رضوان أبواب حلب امام مودود وحلفائه ، عادت
معظم الجيوش الى بلادها ، وتفرق الحلفاء ، ولم يبق مع مودود سوى
طغتكين اتابك دمشق ، الذي سبق وأن انضم الى جيش مودود عقب
وحصول الأخير الى بلاد الشام ، ورحل كلا من مودود وطغتكين من حلب
الى معرة النعمان ثم الى شيزر ومنها اتجهوا الى دمشق (٢٧) ، وهما
حانقين على رضوان ما فعله ، وعزم طغتكين على قطع سبل المودة التي
كانت بينه وبين رضوان ، كما اسقط اسمه من الخطبة بدمشق (٢٨) .

وأقام مودود بدمشق ضعيفاً على طغتكين استعداداً لمعاودة القتال
مرة ثانية ضد الصليبيين ، وتعود أن يؤدي صلاة الجمعة بجامع
دمشق (٢٩) ، وعندما كان يؤدي صلاته اذ وثب عليه أحد رجال

(٢٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢٧) الجندی : تاريخ معرة النعمان ، ج ١ ص ١٩٥ — ١٦٠ .

(٢٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٦ ، ابن الفرات : تاريخ

الأمم والملوك ، ج ١ ص ٦٩ .
(٢٩) العظمي : تاريخه

Jornal Asiatique, p. 382.

ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٢٠٧ .

الباطني^١ ، فجرحه جرحاً عميقاً ، فحمل إلى دار الأتابك طغتكين حيث
خيّط جرحه ، ولحنه لفظ أنفاسه ومات من يومه (عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م)^(١١)

وقد دذر معظم المؤرخون أن مودود قتل بإيعاز من طغتكين أتابك
دمشق ، قتله لخوفه من استعادة السلاجقة حكم دمشق وبسط سلطانهم
عليها ، ضارباً بمصالح المسلمين عرض البحر^(١٢) .

ويبدو أنه كان يوجد فريق من الحكام المسلمين كان من مصلحتهم
بقاء الصليبيين في بلاد الشام ، وعدم إقامة جبهة إسلامية متحدة ،
وذلك للمحافظة على سلطانهم ونفوذهم ، وقد توصل إلى هذه الحقيقة
أحد المؤرخين المعاصرين وهو ابن العديم حيث يقول^(١٣) « أن المقدمين —
أي حكام البلاد — كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » ،
وهكذا طالما استمر الوجود الصليبي ، استمر الضعف والاضطراب ،

(٣٠) العظمى : تاريخه . Jornal Asiatique, p 382. ،
ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٧١ ، السيوطي : الخلفاء ، ص ٦٨٤ ،
برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، ص ١١٩

(٣١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣٢) عن المؤرخين الذين أكدوا قتل طغتكين لمودود انظر : ابن العديم :
زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٧١ ،
أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٧ ،
william of Tyre : Hist of Deeds, vol I , p 495 - 496.

بينما يرى سبط بن الجوزي أن طغتكين برىء من دم مودود حيث يقول :
« أن ما ذكره البعض من أن أتابك خاف منه فوضع عليه من قتله ، فليس
بصحيح ، فإنه كما أحب الناس إليه ، وحزن عليه حزناً عظيماً وشق ثوبه
وجلس في عزائه سبعة أيام وتصدق عنه بمال كثير »
(انظر مرآة الزمان Rec - Hist . or . T3 , p 561)

لكن يبدو أن سبط بن الجوزي قد خدع فيما أظهره طغتكين من حزن
واسى على مقتل مودود ، ولم يعلم أنها على سبيل المغالطة حتى لا يثير عليه
الرأي العام الإسلامي من جهة ، وانتقاء غضب السلطان السلجوقي من
جهة أخرى .

(٣٣) زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٧٣ .

واستمر هؤلاء الحكام على « ما هم فيه » من سوء التدبير واستغلال البلاد أسوأ استغلال بحجة الدفاع ومحاربة الصليبيين ، وبالطبع كان المستفيد الوحيد من وراء هذا هم الصليبيين الذين ازدادت قوتهم واتسعت املاكهم •



أما ما قام به امراء الشام وحكامها المسلمين ، من الاستعانة بالصليبيين ضد جيوش برسق الذي خسر لمحاربة الصليبيين ، لهو خير دليل على ما وصل اليه حال القوى الاسلامية من التمزق والانقسام •

فقد حدث أن امر السلطان السلجوقي برسق بن برسق باستكمال مهمة مودود في محاربة الصليبيين ببلاد الشام ، وكتب السلطان أيضا الى جيوش الموصل وغيرها بمرافقة برسق في المسير الى الشام ، ويبدو أن السلطان السلجوقي قصد أيضا من وراء ارسال حملة برسق — بالاضافة الى مقاتلة الصليبيين — معاقبة قتلة مودود (٣٤) •

وما أن شرع برسق في الزحف صوب بلاد الشام ، حتى تخوف طغتكين كثيرا ، وادرك أنه هو المقصود بهذه الحملة ، ولم يكن بقية امراء الشام مثل حكام حلب وغيرها ، اقل تخوفا من طغتكين ، لذلك ارتموا في أحضان الصليبيين طالبين محالفتهم والاتفاق معهم ضد جيش برسق بن برسق !!

وهكذا ضل هؤلاء الحكام الطريق ، فبدلا من فرحتهم بقدوم جيش برسق ، والاعتذار عما سلف ، ومؤازرة برسق في جهاده ضد الصليبيين نجدهم بناصبونه العداء ويتحالفون مع الصليبيين ضده •

وهكذا صارت الأمور في مصلحة الصليبيين الذين تخوفوا هم كذلك من حملة برسق ، وتحالفوا مع طغتكين واعوانه ضد برسق !!

(٣٤) ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٩ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان Rec . Hist . or . T3, p 551 ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٢٠٧ •

فاجتمع طغتكين مع روجر صاحب انطاكية عند افاميه ، ارتقاباً لوصول حملة برسق ، ولحق بهم بعد ذلك بلادوين الأول ملك بيت المقدس ، وانضم اليهم حاكم حلب ، وبذلك تكون حلف صليبي يضم حكام بيت المقدس وانطاكية ودمشق وحلب (الأخيرين من القادة المسلمين) ، ضد جيش برسق الذي ما خرج أصلاً إلا لمحاربة الصليبيين !! *

وعند دانيث — الى الغرب من سرمين — دارت رحى معركة دلاحنة بين برسق وجيوش الصليبيين ومن معهم من المسلمين ، هزم فيها جيش برسق وقتل معظم جنده فضلاً عن اصابة برسق نفسه بعدة جروح أودت بحياته بعد عدة أشهر عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (٣٥) * وبذلك انتهت حملة برسق بالفشل ، وبطبيعة الحال كان المستفيد الوحيد هم الصليبيون *

وإذا كان حكام الشام قد اعتقدوا أنه بتحالفهم مع الصليبيين ضد برسق انهم أصبحوا بمنأى عن اعتداءات الصليبيين ، فقد خاب اعتقادهم ، فبعد أن تخلص الصليبيين من حملة برسق ، عاودوا هجومهم واعتداءاتهم على المدن الإسلامية ، مثال ذلك ما فعله روجر صاحب انطاكية عندما أخذ في مهاجمة حلب ، فلم يكن في مقدور حكامها المضعفاء إلا التنازل له عن بعض أعمالها وقراها اتقاء لشره (٣٦) *

* * *

(٣٥) مسعود عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٦ ،
Runciman : Hist of the Crsades vol 2 , p 133,
Stevenson : The Crusaders in the East, p 100 - 101.
(٣٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٩٩ ، سبط بن الجوزي :
مرآة الزمان (Rec . Hist . or . T3 , p 552) .

(د) تحالف حكام دمشق مع الصليبيين ضد زنكى

عاشت بلاد الشام فى فوضى شاملة منذ أن وطأت اقدام الصليبيين أرضه ، وأخذ التمزق والتنافس طريقه بين حكامها * * واستمر هذا الوضع قائماً الى أن تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل والجزيرة وحلب * ومنذ البداية نجد زنكى يؤمن بفكرة اقامة جبهة اسلامية موحدة ، وبهذه الفكرة بدأ حكمه لتلك البلاد ، وكان من المتوقع ان يصطدم زنكى عند تنفيذ هذه الفكرة بأمراء الشام والجزيرة الراغبين فى العمل منفردين والرافضين لفكرة الوحدة * .

واستطاع زنكى فى السنوات الأولى من حكمه توحيد شمال الشام وحقق بهذه الوحدة انتصارات فى عدد من المعارك ضد الصليبيين ، غير أن حكام دمشق فى جنوب الشام رفضوا تماماً فكرة الوحدة مع زنكى وناصبوه العداء ، ودخلوا معه فى صراع سياسى وعسكرى ، ولم يترددوا فى التحالف مع الصليبيين ضده ، وبطبيعة الحال سارع الصليبيون الى تلبية نداء حكام دمشق ومددوا لهم يد العون والمساعدة فى الوقوف ضد محاولات زنكى لاقامة جبهة اسلامية موحدة ، وقد ادرك الصليبيون جيداً أنه اذا استطاع زنكى توحيد صفوف المسلمين فلن يكون لهم مقام بالشام ، لذلك عموا دائماً على تغذية روح الفرقة والانقسام واثارة المنافسة والصراع بين القوى الاسلامية * .

وانطلاقاً من مفاهيم حكام دمشق الخاطئة ، فقد ناصب بورى صاحب دمشق زنكى العداء منذ أن بدأ الأخير مشروعه الخاص بتوحيد الجبهة الاسلامية ، وبعد وفاة بورى سار ابنه اسماعيل على نفس سياسة والده فى معاداة زنكى * (٣٧) * لكن اسماعيل هذا لم يلبث أن عدل عن هذه السياسة لأسباب داخل دمشق ، وأرسل الى زنكى يطلب منه

(٣٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٤٦ — ٤٧ .

الحضور على وجه السرعة واستلام دمشق^(١٨) . غير أن والدته اسماعيل الخاتون صفوة الملك زمرد رفضت ذلك بشدة ، وقبضت على ابنها اسماعيل وفنلته ونصبت ابنها الصغير شهاب الدين محمود في حكم دمشق ، وتولت معين الدين أنر تدبير أمور دولته^(١٩) .

ونتيجة لتلك الأحداث توجه زنكى الى دمشق وفرض عليها الحصار ، ثم غادرها بعد أن تدخل الخليفة في أمر الصلح بين الجانبين^(٢٠) ، ثم توجه زنكى بعد ذلك الى حمص التي كانت بيد معين الدين أنر انتقاما منه ، وهنا خشي الصليبيون عاقبة استيلاء زنكى على حمص وما يتبعه ذلك من تقوية مركز زنكى في جنوب الشام وبذلك يكون خطرا على كياناتهم في الجنوب ، لذلك وقفوا الى جانب حكام دمشق ، مما اضطر زنكى الى الرحيل عنها^(٢١) .

وقد أدرك زنكى أن شمة بؤادر تحالف بين الصليبيين وحكام دمشق ، لذا رأى أنه من الأفضل اتباع أسلوب السياسة في تحقيق الوحدة الإسلامية وانتمائها بضم دمشق ، لذلك تزوج من الخاتون صفوة الملك زمرد والدته الأمير شهاب الدين بن بوري صاحب دمشق عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، ظلنا منه أنه بهذا الزواج يكون قريبا من دمشق ويسهل بعد ذلك ضمها^(٢٢) ، وقد حصل زنكى في مقابل هذا الزواج على حمص^(٢٣) .

(٣٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٦ ، ابن ابيك : الدرر المضية في أخبار الدولة العاطمية ، ص ٥١٨ .

(٣٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٨ .

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، العظيمي : تاريخه

Jornal Asiatique , p 412.

(٤٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣١ .

(٤٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، العظيمي : تاريخه ، Jornal Asiatique, p 412.

غير أن ما أمله زنكى من وقوع دمشق تحت يده لم يتحقق ، لذلك أخذ يتحين الفرص لأخذها بالقوة ، وجاءت هذه الفرصة عندما قتل شهاب الدين وقبض معين الدين أنر على زمام الأمور بدمشق وولى امرها أخ غير شقيق لشهاب الدين هو جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى صاحب بعلبك ، فحضر جمال الدين هذا الى دمشق وفوض امورها الى معين الدين أنر وأقطع بعلبك وزوجه من والدته ، فصار أنر هو « الجملة والتفصيل »^(٤٤) ، ولم يكن منتظراً أن تسكت زمرد خاتون — والددة شهاب الدين — على هذا العمل ، فأرسلت الى زوجها عماد الدين زنكى وكان بالموصل ، تعلمه بصورة الحال باعثة لاهمته فى النهوض بطلب الثأر ، وفى نفس الوقت وصل الى زنكى بهرام شاه أخو جمال الدين شاكياً من ظلم أخيه طالباً انصافه^(٤٥) . فلم يكن من زنكى الا أن زحف على دمشق وفرض عليها الحصار ، ولما ضاق جمال الدين بحصار زنكى أخذ فى مراسلته فى أمر الصلح ، غير أن القدر لم يمهل جمال الدين لاتمام الصلح ، اذ توفى بعد قليل^(٤٦) ، مما دفع زنكى الى تشديد الحصار على دمشق ، فما كان من أنر الا أن راسل ملك بيت المقدس فولك الانجوى واستدعاه لنصرته ، وخوفه من زنكى اذا استولى على دمشق ووعده بمبلغ كبير من المال ، كما وعده بمساعدته فى الاستيلاء على بانياس ، وكانت بانياس لزنكى^(٤٧) .

وكان أن اسرع الصليبيون لتنفيذ الاتفاق المعقود بينهم وبين حاكم

(٤٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣١ ، حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٤٢ .

(٤٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٩ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٢٦١ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٩٦ .

(٤٦) كان جمال الدين قد رفض من قبل عروض زنكى فى تسليم دمشق لكنه عاد وقبلها بعد ذلك . وعن تفاصيل ذلك انظر : ابن الوردي : تاريخه ص ١٣٥ .

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٤ ، حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩ .

دمشق أنز ، وحضروا الى بانياس لأخذها ، وعندما علم بذلك زنكى توجه الى بانياس لمنعها من السقوط فى يد الصليبيين ، لكن كان وصوله بعد سقوطها فى يد الصليبيين ، مما دفعه الى العودة الى دمشق ومحاصرتها ، لكنه لم يفلح منها بطائل (٤٨) .

وعلى هذا النحو كان التدهور والتفكك ببلاد الشام ، فاذا كان زنكى قد استهدف من وراء ضمه لدمشق توحيد الجبهة الاسلامية ، وسد كافة الثغرات امام الصليبيين ، حتى يكون من السهل عليه بعد ذلك طردهم من بلاد الشام ، فان حكام دمشق رفضوا تلك الوحدة ، وفضلوا التحالف مع الصليبيين ، وفى الحقيقة لم يكن تحالف بمعنى الكلمة ، وانما كان وصاية للصليبيين على دمشق . وهكذا كانت الخسارة فادحة .

(٤٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٨٩ .

(د) دبیس بن صدقه والتمزق الداخلى

ان الدور الذى لعبه دبیس بن صدقه يوضح لنا مدى ما وصل اليه حال المسلمين فى تلك الفترة من فرقة وانقسام ، وكيف تحالفوا مع الصليبيين طمعاً فى تحقيق اطماعهم الشخصية .

أما دبیس هذا فكان والده صدقه بن مزيد صاحب الحلة والبصرة وواسط ، وهو من أصل عربى شيعى^(٤٩) ، ثم توطدت علاقته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ — ٥١١ هـ / ١١٠٤ — ١١١٧ م) . ووقف الى جانبه فى صراعه ضد أخيه السلطان بركياروق ، غير أن السلطان محمد خشى من اتساع نفوذ صدقه ، لذا أخذ يضيق عليه الخناق ، مما أدى الى حدوث الخلاف بين الرجلين ، وفشلت كل الجهود فى التوفيق بينهما ، وانتهى الأمر بأن سير السلطان محمد جيوشه لمحاربة صدقه الذى قتل فى المعركة عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م . ويذكر ابن الاثير أنه قتل مع صدقه فى تلك المعركة عدد كبير من العرب ، بالإضافة الى أسر ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس كان من بينهم ابنه دبیس ، غير أن السلطان محمد أفرج عن دبیس بن صدقه وأعاده الى الحلة ليحل محل والده فى حكمها^(٥٠) .

وقد ورث دبیس بن صدقه عن أبيه عداؤه للسلاجقة ، كذلك ناصب الخلافة العباسية العدا ، ويشير بعض الباحثين الى ان عداؤه للعباسيين

(٤٩) ابن الاثير : ج ١٠ ص ١٤٤ — ١٤٥ .
توجد بعض الآراء التى تحاول الصاق دبیس ووالده صدقه بالباطنية ، لكن مؤرخى هذه الفترة نفوا هذه التهمة عنهم . (راجع ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٦٩) فى حين كان جد دبیس مؤالياً للفاطميين ومتحالفاً معهم (انظر : ابن أبى الدم الحروى : التاريخ المظفر ، ورقه ٨٦ أ) .

(٥٠) وقد أشاد ابن الاثير فى مدح صدقه والد دبیس وقال عنه « لقد كان من محاسن الدنيا » .
انظر الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٥ ، ١٦٩ .

انما كان مبعثه تنشيعه فى حين كانت الخلافة العباسية سنية^(٥١) ، كما أن ما وصلت اليه الدولة العباسية من تفكك شجع دببىس على مواصلة هجماته على بغداد ، وسلب ونهب ما يصل اليه يديه^(٥٢) . كذلك قام دببىس بتهديد طريق الحج « حتى بطل الحج فى سنة (٥١٦ هـ) خوفا »^(٥٣) ، كما أنه بعث أحد رجال الخليفة — وكان فى أسره — ومعه رسالة الى الخليفة ملبية بالتهديد وتخريب بغداد وحرقتها^(٥٤) . ويبدو أن تصرفات دببىس هذه كانت بدافع الانتقام لما حل بأخيه بدران من تكحيل عينيه على يد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه^(٥٥) .

ونتيجة تصرفات وافعال دببىس هذه تجهز الخليفة المسترشد بالله لمحاربتة عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م^(٥٦) ، ويذكر ابن ابى المدم الحموى ان الخليفة « خرج لابسا قباء أسود وعمامة وبردة النبى ﷺ على كتفه وطرح على رأسه طرحة وتهيء دببىس للقتال وهو بالحلة ، فالتمقى الجمعان ، وكان فى عسكر دببىس البغايا والمخانيث والملاهي يضرب بها ، ولا يسمع فى عسكر المسترشد الا قراءة القرآن والتسبيح »^(٥٧) . وأسفرت تلك المعركة التى درات بالمباركة — بين الكوفه وبغداد — عن هزيمة ساحقة لجيش دببىس ونهب الحلة^(٥٨) .

-
- (٥١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٣٤ .
ويستفاد مما أورده المؤيد فى الدين انه كانت توجد علاقة طيبة ربطت الخلافة الفاطمية بابن مزيد وقلده وخلع عليه الخليفة الفاطمى . راجع : السيرة المؤيدية ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٥٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣١ .
(٥٣) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ١٩٤ .
(٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، حسن محمود : العالم الاسلامى ، ص ٦٢٩ .
(٥٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣١ .
(٥٦) استعان الخليفة فى محاربة دببىس بجيوش آقسنقر البرسقى اتابك الموصل ، كما اشترك عماد الدين زنكى الذى كان واليا على مدينة البصرة .

- راجع ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ ، الباهر ص ٤٥ .
(٥٧) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقة ١٩٤ .
(٥٨) ابن ابى الدم : المصدر السابق ، ورقه ٩٤ .

ولجأ دبببس بعد هذه الهزيمة الى الملك طغرل بن السلطان محمد أخو السلطان محمود ، وذلك لوجود عداء بين طغرل هذا وبين السلطان محمود ، وأشار عليه بمهاجمة بغداد ، وقد وافقه طغرل على ذلك . ففى العام التالى (٥١٨ هـ / ١١٢٤ م) اتجه دبببس وبصحبته طغرل الى بغداد وعزم على مهاجمتها ، فخرج اليهما المسترشد على رأس الجند ، فرأى دبببس ضرورة مصلحة الخليفة ، واجتمع به ، « وقبل الأرض بين يدى المسترشد ، وقال العبد المطرود المذنب ما آن ان يعفى عنه » ، فرق الخليفة لحاله وكاد يعفو عنه ، لولا تدخل وزيره نظام الدين احمد ابن نظام الملك الذى أوعز الى الخليفة بعدم العفو عن دبببس ، مما دفع دبببس الى الانصراف غاضباً (٥٩) .

واتجه دبببس بن صدقه بعد ذلك للعمل فى ميدان آخر هو شمال الشام حيث شارك فى أحداثه مع كل من الأتابكة والصلبيين (٦٠) .

وكان الصراع الدائر رحاه فى ذلك الحين بين بعض القيادات الاسلامية بشمال الشام وبين الصليبيين ، خاصة بين بلك بن بهرام الارتقى صاحب خرتبرت وبين بلدوين الثانى ملك بيت المقدس والوصى على انطاكيه ، وقد وقع الأخير فى أسر بلك عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، واستمر بلدوين أسيراً لدى بلك حتى وفاة بلك ، فإطلق ثمرةثاش ابن أخى بلك سراحه فى مقابل فديه مالية كبيرة واعادة بعض الاقاليم الاسلامية التى كانت بيد الصليبيين مثل عزاز والأثارب وزردنا وكفر طاب (٦١) .

(٥٩) ابن ابى الدم : المصدر السابق ، ورقه ٩٤ أ .

(٦٠) يثسبر ابن الاثير الى ابن دبببس « الحتنى خبره بعد ذلك وارجف عليه بالقتل ثم ظهر امره » .
راجع الكامل ج ١٠ ص ٢٣٢ .

(٦١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٢١ ، ابن ابيك : الدرر المضيه ، ص ٤٩٤ .

ولم يكن في مقدرة بلدوين تنفيذ ذلك الاتفاق ، سواء دفع الأموال أو إعادة الأملاك الإسلامية ، لذلك خشي من اغارة ثمرتاش عليه ، فعمل على تكوين حلف ضده * وهنا ظهر دور دبليس بن صدقه الذي لم يتأخر في الانضمام الى ذلك الحلف الصليبي مؤيداً بلدوين ضد ثمرتاش صاحب ماردن وحلب ، ويبدو أنه اشترك في هذا الحلف نتيجة طمعه في الاستيلاء على حلب بمساعدة الصليبيين ، ويتضح هذا من مخاطبته بلدوين متحدثاً عن حلب « ان أهلها شيعة وهم يميلون الى لأجل المذهب ، فمتى رأوني سلموا البلد الى *** واننى اكون هاهنا — يقصد حلب — نائباً عنكم ومطيعاً لكم » (٦٢) .

وهكذا اشترك دبليس في الحلف الصليبي ضد الجيوش الإسلامية ، وذلك طمعاً في تحقيق مطمح خاص ، واضعاً نفسه تحت طاعة وخدمة الصليبيين !! ومن يدرى هل كان بلدوين الثانى سيسلمه حلب اذا استولى عليها كما توقع دبليس ام لا ؟ ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن الصليبيين استخدموا المسلمين أنفسهم في تصفية اخوانهم المسلمين ، سواء كانوا عرباً ام تركاً ، ام سنة ام شيعة ، وبالطبع اينما تكون النتيجة فهي في صالحهم (٦٣) .

ولم يكن دبليس بن صدقه هو وحده من المسلمين الذى اشترك مع بلدوين الثانى ، وانما انضم ايضاً الى ذلك الحلف سلطان شاه ابن الملك رضوان الذى اعتبر ثمرتاش مغتصباً لحقه فى حكم حلب (٦٤) .

وبالفعل تقدم بلدوين الثانى عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وبصحبه دبليس بن صدقه وسلطان شاه صوب حلب وفرضوا عليها الحصار

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٢١ ، ابن الايبك : الدرر المضية ، ص ٤٩٤ .

(٦٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٢٤ .

(٦٤) العنطيه : تاريخه . Jornal Asiatique, p 393.

حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٢١ .

« وبنوا البيوت بظاهرها من أجل حمايتهم من البرد والحر » ، وأرسل أهل حلب مستنجدين بتمرتاش الذى كان مشغولا بأمر مارددين^(٦٥) ، فلم يلب ندائهم ، مما دفعهم الى الاستنجد بآق سنقر البرسقى صاحب الموصل^(٦٦) ، الذى لبى النداء وحضر على الفور ، فخشى بلدوين وحلفائه الدخول فى حرب مع البرسقى ، رفعوا الحصار عن حلب^(٦٧) .

واذا كان تحالف دببى بن صدقه مع بلدوين قد باء بالفشل فى هذه المرة ولم يستطع تحقيق احلامه فى امتلاك حلب ، فانه أخذ بعد ذلك يحدث لنفسه عن حلفاء آخرين يساعدونه فى تحقيق أطماعه .



واستمر دببى بن صدقه يعبث فى شمال الشام من أجل تحقيق اطماع شخصية الى أن قبض عليه فى بعض أعمال دمشق ، فحمل الى صاحب دمشق الذى باعه الى عماد الدين زنكى صاحب الموصل والشام بخمسين الف دينار ، واعتقد دببى ان زنكى سيقتله ، لما كان بينهما من عداوة ، غير أن زنكى لم يفعل ذلك ، وانما على العكس من ذلك وكما يروى ابن ابى الدم الحموى^(٦٨) « أكرمه وعظمه وخوله المال والرجال والسلاح حتى قدمه على نفسه » ، كما أن زنكى رفض تسليمه الى الخليفة المسترشد الذى أرسل الى زنكى يطلبه لمعاقبته على خروجه عن طاعته^(٦٩) .

(٦٥) سبط بن العجمى : كنوز الذهب فى تاريخ حلب ، ورقه ٥١ (مخطوط) .

(٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ — ٢١٢ ، ابن ابيك : الدرر المضية ، ص ٤٩٤ — ٤٩٥ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقه ٢٦ (مخطوط) .

(٦٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢٢ ، ابن العديم : بغية الطلب Rec . Hist . or . T3 , p 718 ، سبط بن العجمى : كنوز الذهب ، ورقه ٥١ (مخطوط) .

(٦٨) التاريخ المظفرى ، ورقة ١٩٥ . (مخطوط) .

(٦٩) ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ٩٥ أ (مخطوط) .

ويبدو أن زنكى رأى انه من الأصح ضم ديبس الى جانبه ،
لتوحيد كلمة المسلمين ، والاستفادة بخبرته العسكرية فى محاربة
الصليبيين ، خاصة وأن زنكى فى تلك المرحلة كان يصدد تكوين جبهة
اسلامية موحدة ، ضد العدوان الصليبي ، وقد وجد زنكى فى ديبس
قوة تساعد فى تحقيق ذلك ، خاصة وأنه كان لدى ديبس مجموعة من
الأتباع والرجال الذين يجيدون فن القتال ويعرفون أسرار الطرق
والمسالك ببلاد الشام ، لذلك فضل زنكى ضم ديبس الى جانبه ، ونجح
فى ذلك ، وهذا الأمر — أى ضم ديبس والاستفادة به بدلاً من عدوانه —
لم يستطع الخليفة المسترشد تحقيقه نتيجة موقف وزيره نظام الدين
ابن نظام الملك المعادى لديبس بن صدقه ♦

وقد اثبتت الأحداث التاريخية بعد ذلك أن ديبساً ظل حليفاً مخلصاً
لزنكى ، وقام بمساعدته فى معاركه وحروبه ، حتى مقتله عام
٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م على يد السلطان المنصور السلجوقى (٥٢٧ —
٥٤٧ هـ / ١١٣٢ — ١١٥٢ م) انتقاماً منه لاختلاصه لزنكى (٧٠) ♦

* * *

(٧٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٠ — ١١ .

(و) تتنافس الامراء بحلب عقب وفاة نور الدين محمود

بوفاة السلطان نور الدين محمود عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، دخلت دولته فى اضطراب وفوضى شاملة ، بعد أن كافح نور الدين ومن قبله والده عماد الدين فى توحيد صفوفها من أجل الصمود فى وجه الصليبيين * وكان السبب وراء هذا الاضطراب هو ظهور المنافسة بين الامراء من اجل الاستيلاء على السلطة *

فبعد وفاة نور الدين ، خلفه فى الحكم ولده الملك الصالح اسماعيل (٥٦٠ — ٥٧٦ هـ / ١١٧٣ — ١١٧٨ م) ، وكان عمره حينئذ احدى عشر عاما ، وقد ساعد صغر سن الصالح على قيام التنافس والصراع بين الامراء للانفراد بالسلطة ، وكان اقرب المتصارعين هم الامير شمس الدين على بن محمد بن الداية ، والامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، والقاضى ابي الفضل بن الخشاب قاضى حلب ، وبقيام الفتنة بينهم انحاز الشيعه الى جانب ابن الداية ، فى حين وقف السنه بجوار القاضى ابن الخشاب ، وهكذا انقسم المسلمون فيما بينهم : مما كان مؤذناً بتفكك وانقسام دولة نور الدين محمود ، ثم ظهر منافس آخر وهو سيف الدين غازى بن قطب الدين ابن عم نور الدين محمود ، الذى انتهز فرصة وفاة ابن عمه واستولى على البلاد الجزرية (٧١) *

وقد أحضر ابن الداية الملك الصالح الى حلب بدلا من اقامته بدمشق ، وذلك حتى يكون تحت يده من جهة ، وليتقوى به من جهة أخرى فى الاستيلاء على السلطة (٧٢) *

(٧١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٢ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٣٨ ، ابن العديم : بغية الطلب T3 ، Rec. Hist . or ، p 697 ، سبط بن العجمي : كنوز الذهب ، ورقه ٢١ (مخطوط) .

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٣ .

وخلال تلك الفوضى التي عمت بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ظهر دور الصليبيين ، الذين انتهزوا الفرصة وعملوا على الاستيلاء على بعض الممتلكات الاسلامية ، من ذلك ما قام به عموري الأول ملك بيت المقدس من الاغاره على بانياس بقصد الاستيلاء عليها ، وام يكن لادى ابن المقدم الذى تولى الاشراف فى ذلك الحين على حكم دمشق ، من القوة ما يساعده على الدخول فى حرب ضد عمورى ، فدفع له قدر من المال حتى يبعده عن بانياس^(٧٣) . وهكذا كان المستفيد من وراء انقسام الدولة الاسلامية هم الصليبيون .

وفى تلك الاثناء كان الأمير سعد الدين كمشتكين قد قبض على ابن الدايه وحبسه بقلعة حلب ، واستبد بأمور حلب ، مما أدى الى تخوف ابن المقدم منه^(٧٤) ، لذا رأى ابن المقدم أن من مصلحته أن يرسل الى صلاح الدين الأيوبي ليحضر من مصر ، ويسلمه دمشق ، بدلا من وقوعها فى يد سعد الدين كمشتكين^(٧٥) .

وكان صلاح الدين فى ذلك الحين يتولى أمور مصر ، وقد استاء كثيرا بعد سماعه بالفوضى والاضطراب التي عمت مملكة نور الدين بعد وفاته ، كما غضب لما فعله الصليبيون بالبلدان الاسلامية واغاراتهم المتتالية عليها ، وقرر التوجه الى الشام لمعاينة هؤلاء الامراء الذين فرطوا فى دولة نور الدين ، وليضع حداً لهجمات الصليبيين على الممتلكات الاسلامية ، ولاعادة توحيد الجبهة الاسلامية^(٧٦) .

(٧٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣١ .

(٧٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٨ ، ابن العديم : بغيضة الطلاب . Rec . Hist. or . T3 . p 698 .

(٧٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٧ — ١٨٨ ، ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب يبنى ايوب ، ورقه ٢١ (مخطوط) .

(٧٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٢ ، سبط بن العجمى : كنوز الذهب ، ورقه ٢١ (مخطوط) .

واتجه صلاح الدين الى الشام ، ووصل الى دمشق ، فخرج اهله لاستقباله فرحين بقدومه ، ودخلها ، وسلم ابن المقدم قلعتها له ، ومن الملاحظ أن الصليبيين عندما عاموا بخروج صلاح الدين الى الشام ، خشوا عاقبه ذلك عليهم ، ووضعوا العراقيل في طريقه الى الشام وقاموا بمضايقته حتى يعود ثانية الى مصر ، غير أن صلاح الدين لم يأبه بمثل تلك المضايقات والعراقيل وواصل سيره الى ان وصل الى دمشق^(٧٧) .

وبوصول صلاح الدين الى دمشق تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشام في تلك الفترة ، وهي مرحلة اتسمت بمحاولات إعادة توحيد الجبهة الاسلامية مرة أخرى ، وإعادة لم شمل لدولة نور الدين ، وكان صلاح الدين في ذلك الحين متمسكاً بالبيت الزنكي وبالمملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وأظهر في مناسبات عديدة انه لم يحضر الى الشام الا لخدمة الملك الصالح والوقوف الى جواره ضد اعداء الدولة الزنكية سواء من الأمراء الطامعين في السلطة أو ضد الصليبيين .

غير أن سعد الدين كمشتكين ومن ورائه جماعة الأمراء المحليين خشوا من ضياع سلطانهم ونفوذهم اذا أعيدت الجبهة الاسلامية الى سابق وحدتها ، لذلك فضلوا الانفراد بحكم حلب ، وناصبوا صلاح الدين العدا^(٧٨) .

واستمر الصراع بين صلاح الدين وبين المحليين الرافضين الانضمام للوحدة الاسلامية ما بين عامي ٥٧٠ هـ — ٥٧٩ هـ / ١١٧٤ — ١١٨٣ م ، أي ما يقرب من تسعة اعوام ، وخلال هذا الصراع استعان المحلييون بكل من الصليبيين والباطنية ، مما يدل على مدى تخبط هؤلاء الأمراء^(٧٩) .

(٧٧) ابن النديم : بغية الطلب ، Rec . Hist . or T3 p 699 .

ابراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ، ورقه ٢١ (مخطوط) .

(٧٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٩ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٣٩ .

(٧٩) عن تفاصيل هذا الصراع انظر : حامد زيان : حلب في العصر

الزنكي ، ص ٧٩ — ٨٨

والحقيقة أن الصليبيين والباطنية خشوا من إعادة توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى على يد صلاح الدين ، لذلك وقفوا الى جانب الحلبيين في معارضتهم لهذه الوحدة ، ويظهر ذلك واضحا في وقوف ريموند الى جانب الحلبيين ، وفي محاولات الباطنية المتكررة لاغتيال صلاح الدين *

غير أن صلاح الدين استطاع في النهاية الانتصار على هؤلاء الخارجين وضم حلب الى الجبهة الإسلامية عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وبذلك أصبح في مقدوره بعد أن اتم توحيد الجبهة الإسلامية ، منازلة الصليبيين والحاك الهزيمة بهم *

* * *

(ز) موقف أتابكة الموصل من صلاح الدين

أدرك أتابكة الموصل — من بقايا البيت الزنكى — خطورة قيام صلاح الدين الأيوبي بتوحيد الجبهة الاسلامية عليهم ، خاصة وانهم انتهزوا فرصة وفاة نور الدين واستقلوا بما تحت ايديهم من أملاك . لذلك اتخذوا منه موقفاً عدائياً واستمرت الموصل خارجة عن صفوف الوحدة الاسلامية منذ عام ٥٧٠ هـ إلى عام ٥٨١ هـ (١١٧٤ — ١١٨٥ م) .

والمعروف أن سيف الدين غازي الثاني أتابك الموصل قد اغتتم فرصة وفاة نور الدين محمود واستولى على حران ونصيبين والرها وسروج والرقه ، محاولاً الاستقلال بتلك الممتلكات ، وهكذا بدأ التفكك والانقسام يعم كل دولة نور الدين محمود (٨٠) .

وعندما خرج صلاح الدين الأيوبي من مصر متجهاً صوب الشام من أجل إعادة توحيد دولة نور الدين ، رأى سيف الدين غازي ضرورة الاعتماد على قوى أخرى للوقوف امام صلاح الدين ، فتحالف مع الخارجين على صلاح الدين بحلب ، ومعنى ذلك أن المواصلة والحلبين كونوا جبهة ضد محاولات صلاح الدين في توحيد الجبهة الاسلامية (٨١) .

وفي محاولة من صلاح الدين لاثارة المتاعب في وجه سيف الدين غازي ، أطمع أخيه الأكبر عماد الدين زنكى (٨٢) في حكم الموصل ، باعتباره الوارث الشرعي لأتابكة الموصل بعد أبيه ، وقد استحسن عماد الدين زنكى هذه الفكرة وخرج على أخيه سيف الدين (٨٣) .

(٨٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٦ ، ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٨١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٠ ، رشيد البميللي : دولة الاتابكة في الموصل ، ص ١١٧ — ١١٨ .

(٨٢) كان عماد الدين زنكى يتولى حكم سنجار .

(٨٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٠ ، ابن الوردي : تاريخه ، ج ٢ ص ٨٤ .

غير أن سيف الدين غازي لم يبال بخروج أخيه عماد الدين ووجه
إليه جيشاً لمحاربته ، وفى نفس الوقت أرسل أخاه عز الدين مسعود
على رأس جيشاً آخرًا لمساندة الحلبيين فى الوقوف أمام
صلاح الدين (٨٤) .

وفى نفس الوقت لم يتردد أتابكة الموصل فى الاستعانة بالصليبيين
للقوف ضد محاوله صلاح الدين فى لم شمل الدولة الاسلامية ، خاصة
بعد هزيمة جيوتسهم امام صلاح الدين فى موقعه قرون حماه عام
٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ، حيث أرسل سيف الدين غازي إلى ريموند الثالث
يطلب معونته ومؤازرته . ويبدو أن صلاح الدين أدرك مسبقا ما سيقوم
به حكام الموصل من الاستعانة بالصليبيين ، لذلك سارع بعقد اتفاق
مع ريموند ، تعهد ريموند بمقتضاه بعدم الاعنداء على صلاح الدين فى
مقابل تسليم صلاح الدين للأسرى الصليبيين الذين كانوا عنده ، ونتيجة
ذلك الاتفاق رفض ريموند طلب سيف الدين غازي ولم يوافق على
مساعده ضد صلاح الدين (٨٥) ، ويبدو أن ريموند خشى أيضا من عاقبة
نقضه للاتفاق المعقود مع صلاح الدين ، وما سيتبع هذا من وقوعه
فى عدااء مع صلاح الدين .

وباستمرار الصراع بين أتابكة الموصل وصلاح الدين ، عاود هؤلاء
الأتابكة مراسلة الصليبيين مرة أخرى عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م من أجل
الاستعانة بهم ضد صلاح الدين ، ويجرضهم على مهاجمة أملاكه ، حتى
يشتت قواه ويبعده عن الموصل (٨٦) .

غير أن صلاح الدين رغم كل المحاولات التى بذلها أتابكة الموصل
فى عرقلة جهوده الرامية الى توحيد الجبهة الاسلامية ، استطاع ضم

(٨٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٩٤ ، الاصفهاني :
سنا البرق الشامي ص ٩٤ — ٩٧ .

(٨٥) رشيد الجميلى : دولة الأتابكة فى الموصل ، ج ١٢٢ .

(٨٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ ،

الموصل الى الجبهة الاسلامية عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، وأصبح عز الدين مسعود قائماً لصلاح الدين بالموصل^(٨٧) . وبذلك يكون صلاح الدين استطاع إعادة توحيد الجبهة الاسلامية ، ومن ثم أصبح فى مقدوره منازلة الصليبيين .

ولا شك فى أن خروج كل من الحلبيين والمواصلة على صلاح الدين ، ومناصبتهم العداء له فترة طويلة امتد حوالى تسعة اعوام بالنسبة للحلبيين واحدى عشر عاماً بالنسبة للمواصلة ، قد أعاق صلاح الدين فى محاربة الصليبيين ، وكان ذلك بطبيعة الحال فى صالح الصليبيين .

* * *

(٨٧) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٠ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥١٧ ، ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٧٣ .

ومن الملاحظ ان القاضى بهاء الدين بن شداد هو الذى قام باقرار الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود .

القصل الخامس

الباطنية وتمزيق الدولة الاسلامية

- (أ) طبيعة الدعوة الاسماعيلية
- (ب) دور الباطنية بالعراق وفارس
- (ج) امتداد نشاط الباطنية الى الشام
- (د) تحالف الباطنية مع الصليبيين

الفصل الخامس

الباطنية وتمزيق الدولة الاسلامية

(أ) طبيعة الدعوة الاسماعيلية

الباطنية أو الاسماعيلية ، احدى فرق الشيعة ، وهم ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق وهو الامام السابع عندهم ولذلك اطلق عليهم ايضاً اسم السبعية .

وآهم ما يقوم عليه المذهب الاسماعيلي هو ايمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وللتنزيل معانٍ ظاهره يعرفها الناس وأخرى باطنه يعرفها الامام ولذلك سموها بالباطنية^(١) . وقد اتخذ هؤلاء الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجأوا الى التاويل ، كذلك فهم يؤكدون على ضرورة وجود الامام^(٢) ، ويقولون « من مات ولم يكن شيء عنقه بيعة امام مات ميتة جاهلية »^(٣) .

وقد اتخذ الباطنية الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من اعدائهم ، وكان يقوم بعملية الاغتيال فئة الفداوية ، أصحاب الخناجر المسمومة ، وأصبح الاغتيال بالخنجر عند الباطنية فناً قائماً بذاته^(٤) .

(١) عن آراء الباطنية ومذهبهم انظر :
الغزالي : فضائح الباطنية ص ١١ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٦ — ١١٧ ، ١١٩ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ص ٢٦٨ — ٢٧٤ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٣٦ وما بعدها ، حسن محمود : العائم الاسلامي ص ٦٠٢ .
(٢) يقول الغزالي : وانما لقبوا بها لدعواهم ان لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر . . فضائح الباطنية ص ١١ .
برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ١٩٢ .
(٤) انظر الغزالي : فضائح الباطنية ، يذكر ابن الفرات « ان الاسماعيلية يقال لهم الفداوية » ، تاريخ الامم والملوك ص ١٥٣ — ٢٥٤ تحقيق حسن الشماع حوادث سنة ٦٠٠ — ٦١٥ هـ

ويصفهم مما ذكره المؤرخون والرحالة ان داعى دعاة الباطنية — شيخ الجبل — بالموت أنشأ حديقة غناء بها كل مالذ وطاب ، وحاول أن ينشأ بها بعض ما وصفت به الجنة من نخيل واعناب وفاكهة وغير ذلك ، وبعد أن يتسامر داعى الدعاة مع المفتية الفداوية المناط بهم امر اغتيال شخص معين ، يسبقونهم مشروب الحشيش الى ان يتم تخديرهم ، ثم ينقلونهم الى تلك الحديقة ، وهناك يفيقون فيجدون أنفسهم بين حدائق وفاكهة وبساتين حور العيون ، وبعد أن يقضوا بعض الوقت ينعمون بما بها من نعيم يتم تخديرهم مرة أخرى ثم ينقلون الى حضرة داعى الدعاة الذى يسألهم اين كانوا فيجيبون انهم كانوا بالجنة ويقصون عليه ما شاهدوه من نعيمها ، وهنا يقول لهم اذا اردتم أن تنعموا بتلك الجنة مرة أخرى عليكم بقتل فلان ، ويحدد لهم الشخص المراد قتله ، فلا يتردد هؤلاء المفتية فى تنفيذ ذلك طمعاً فى العودة الى الجنة التى أحسوا بنعيمها^(٥) ، ومن الملاحظ انه نسبة الى مادة الحشيش التى يتم تخديرهم بها لذا اطلق عليهم اسم الحشاشين أو الحشيشة^(٦) .

(٥) ومن ناحية أخرى أشار جوانفيل فى مذكراته أن هذه الطائفة كانوا لا يعبأون بالموت وذلك لايمانهم بأن الشخص اذا مات فى سبيل سيده — شيخ الجبل — أو لآى سبب آخر ، حلت روحه فى جسد شخص آخر وهى أكثر راحة واطمئناناً .

راجع مذكرات جوانفيل : القديس لويس ، ص ١٢٥ .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ ، حسن البراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ ، Marco - polo : Traveles , 49 - 50.

وانظر الفصل الخاص بالاسماعيلية الحشاشين الذى كتبه برنارد لويس فى كتاب
Settor : Hist of the Crusades, vol I, p. 94 - 135.
وقد لقب طائفة الاسماعيلية بعدة القاب أوردها الغزالي كما يلي : الباطنية — القرامطة — الاسماعيلية — السبعية — المحمرة — التعليمية — راجع : فضائح الباطنية ص ١١ — ١٧ . وعن القاهن أيضاً انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(ب) دور الباطنية بالعراق وفارس

وقد وجدت الدعوة الباطنية أو الاسماعيلية طريقها الى فارس والعراق في بداية الأمر كامتداد للدعوة الفاطمية ، على يد داعي دعاة الفاطميين ، المؤيد في الدين الشيرازي ، الذي قام بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق ، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان ابو كاليجار البويهى الشيعى الذى كان ميالا للفاطميين^(٧) ، وعندما ناصبهم الوزير نظام الملك العداء لم يترددوا في التخلص منه عن طريق القتل عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ويذكر ابن خلكان^(٨) أن نظام الملك قتل في شهر رمضان بعد تناوله طعام الافطار واثناء خروجه لزيارة أهله ، حيث اعترفه صبي ديلمى من الباطنية ، اظهر أن معه ظلامه ، فلما مد نظام الملك يده لتناولها طعنه الصبى بسكين في قلبه ، فسقط فاقد الوعي ، وتوفى بعد أن وصل الى خيمته ، في حين قبض رجال نظام الملك على المقاتل وقتلوه^(٩) .

ولا شك في أن قتل نظام الملك قد عاد بعواقب وخيمة على الدولة الاسلامية ، خاصة وأن نظام الملك كان له جهوداً كبيرة في تنظيم الدولة وترتيب امورها ، ويكفى لنظام الملك فخراً انه صاحب فكرة تأسيس المدارس ونشرها ، ويشير ابن ابي الدم^(١٠) الى النتائج التى ترتبت

(٧) المؤيد في الدين : النسيرة المؤيدية ، ص ٤ ، ١٣ ، احمد كمال اندين حلمى : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ١٦٧ — ١٨٧ .

(٨) وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣٩٨ .

(٩) توجد عدة آراء في قتل نظام الملك منها أن السلطان ملكشاه دس له من قتله لعدواه نشأت بينهما ، ومنها أيضا أن تركان خانون زوجة ملكشاه حددت عليه لأنه كان يميل الى تولية بركياروق العهد — وهو ابن ضرته — بدلا من ابنها الصغير محمد

انظر : ابن الاثير : الكامل ، ج ١ ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٠) التاريخ المظفر ، ورقه ٩١ .

على قتل نظام الملك بقوله « ولما قتل نظام الملك تشوشت أمور السلطان ملكشاه ، واختلت الأحوال ، فطاح العدل ، وأنطفأت أنوار العلم ، ودرست معالم الفضل ، ولم يبق منها الا الرسوم » .

وكان أول دعاة الباطنية بفارس والعراق أحمد بن عبد الملك ابن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم وأنيسوه نتاجاً وجمعوا له الأموال^(١١) . وبعد وفاته عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م حل محله الحسن ابن الصباح ، وقد نشأ الحسن بن الصباح بالرى وتأثر فى شبابه بالدعوة الاسماعيلية ، وطاف بالبلاد وعاش بمصر حوالى عام ونصف العام والتقى بالخليفة المستنصر عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، وسأل المستنصر من الامام بعدك ؟ فأخبره أن الامام بعده ابنه نزار ، ثم كان أن عاد الحسن الصباح الى فارس وأخذ يدعو لنزار ، وشاعت الظروف أن يحدث نزاع حول ولاية العهد بين ابنى المستنصر نزار والمستعلى ، وانقسم الاسماعيلية الى فريقين ، فريق يناصر نزار والآخر يناصر المستعلى ، ولم يتمكن نزار من الوصول الى العرش وهزم وأسر ومات فى الأسر . غير أن الحسن الصباح رفض بيعة المستعلى واستمر يدعو لنزار مكوناً طائفة النزارية^(١٢) .

وقد اتخذ الحسن الصباح قلعة الموت قرب قزوین معقلاً للباطنية عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٧ م ، كما أنه نظم الدعوة الباطنية الى عدة مراتب وفق تنظيم دقيق ، وكانت اهم مرتبة فى هذا التنظيم هى مرتبة الفداويه — الفدائيين ، وهم الذين يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم ، وطمعاً فى الخلود بالجنة ، وأصبحوا الأداء التى استخدمها دعاة الباطنية فى التخلص من اعدائهم^(١٣) .

(١١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٣٦ .

(١٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١١٧ — ١١٨ .

(١٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ص ٢٧١ — ٢٧٣ .

وهكذا أصبح الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند الباطنية لتنفيذ خططهم واعمالهم ، وقد اثار هذا العمل الرعب والخوف فى نفوس اهالى فارس والعراق ويشير المؤرخون الى « انه كثر امر الباطنية بالعراق وقتلهم الناس ، واشتد الخطب بهم ، حتى كان الامراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم » (١٤) .

* * *

(١٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٨١ .

(ج) امتداد نشاط الباطنية الى الشام

ثم امتد نشاط الباطنية الى بلاد الشام منذ ايام الملك رضوان ابن تنش صاحب حلب (٤٨٨ — ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣ م) (١٥) ، حيث « استمال رضوان الى الباطنية الحكيم المنجم الباطنى ، وظهر مذهبهم فى حلب ، وشايعهم رضوان ، وحفظ جانبهم ، وصارت لهم بحلب الجاه العظيم والقدره الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب فى ايامه » (١٦) . ويعتبر رضوان هو أول من أنشأ للباطنية دار دعوة ببلاد الشام (١٧) .

وبامتداد نشاط الباطنية الى بلاد الشام فى تلك الفترة ، ازدادت بلاد الشام فوضى واضطراب ، وأضاف عاملاً جديداً من عوامل الصراع والتنافس داخل تلك البلاد . وأخذ رجال الباطنية يوجهون نشاطهم ضد المسلمين والمسيحيين سواء ، وقاموا باغتيال عدد كبير من قادة المسلمين ، كما انهم تحالفوا فى فترات كثيرة مع الصليبيين ، كل ذلك أدى الى زيادة التفكك والتمزق ببلاد الشام عصر الحروب الصليبية .

وكان من نتيجة الأعمال الاجرامية التى مارسها الباطنية بحلب ضد المسلمين ، وانحرافهم عن الدين ، ان استاء منهم أهالى الشام ، مما دفع بعض الامراء فى التحدث مع رضوان فى امرهم حتى يعدل عن مساندتهم وتأبيدهم ، وقد أشار الى ذلك ابن العديم (١٨) بقوله « وكاتبه الملوك

(١٥) يشير الدكتور حسن ابراهيم حسن الى أن بداية نشاط الباطنية السياسى ببلاد الشام يبدأ عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وذلك بالاستيلاء على قلعة بانياس . (انظر : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ص ٢٧٦) .

(١٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤٥ .

(١٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠٥ .

(١٨) زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤٥ .

فى امرهم ، فلم يانتفت ولم يرجع عنهم » ، وهكذا نسجع رضوان الباطنية فى التمدادى فى افسالهم الاجرامية ، مما أدى الى زيادة جرائمهم واغتياالاتهم ، ونحن قد سبق أن أشرنا أن الدافع الرئيسى الذى دفع رضوان الى الاعتماد على الباطنية كانت رغبته فى تحقيق بعض الاطماع الشخصية ومحاولته الاعتماد على قوة تساعد فى ذلك ، وهذا يوضح ما وصل اليه حكام الشام من تخطيط فى تلك الفترة .

وكانت النتيجة الطبيعية هو كثرة عدد الضحايا الذين اغتالوهم الباطنية ببلاد الشام فى تلك الفترة ، وفى عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م قتل ثلاثة من الباطنية جناح الدولة بن الحسين صاحب حمص ، قتلوه بجامع حلب اثناء تأدية الصلاة^(١٩) ، والمعروف أن جناح الدولة كان على عدااء مع رضوان^(٢٠) ، ولكنه كان فى نفس الوقت من ألد اعداء الصليبيين ، خاصة ريموند التولوزى ، حيث وقف جناح الدولة حائلا بين ريموند وتحقيق اطماعه فى طرابلس ، لذلك جاء مقتل جناح الدولة فى صالح المصليبيين بصفة عامة ، وريموند بصفة خاصة ، واصبح فى مقدوره تحقيق اطماعه فى طرابلس . ومعنى ذلك أن المسلمين أخذوا يصفون أنفسهم بأنفسهم ، وبالطبع كان المستفيد الوحيد هم الصليبيون .

ومما يؤكد هذه الحقيقة ، ما حدث عندما قتل خلف بن ملاعب صاحب أفاميه على يد جماعة من الباطنية ، فلما كان من تانكرد الا أن انتهز هذه الفرصة وهاجم أفاميه واستولى عليها بعد مقتل خلف

(١٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٤ ، ابن ابى الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٢٠٠ ب ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان .
(Rec - Hist or . T3 , p 525)

برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، ص ١١٦ .

(٢٠) ولا يستبعد أن يكون رضوان هو الذى أوغز الى الباطنية بقتله نتيجة ذلك العدااء .

وعن العدااء بين رضوان وجناح الدولة انظر ما سبق فى الفصل الاول .

بن ملاعب (٢١) ، كما أصبح الطريق ممهداً امامه للاستيلاء على كفر طاب وغيرها من أعمال حلب (٢٢) .

ويبدو أن الباطنية أرادوا أن يتخذوا لأنفسهم مقراً آخر ببلاد الشام غير حلب ، بعد أن احسوا بثقلهم على رضوان ونفور أهل حلب منهم ، وما فعله عامة أهل حلب من سب رضوان بسببهم (٢٣) ، لذلك فكروا في اتخاذ قلعة شيزر مقراً لهم ، وكان أن انتهزوا فرصة خروج صاحبها (٢٤) للنزاه عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م فقاموا بمهاجمتها بغته حيث « دخلوا على حين غفلة من أهلها ، وملكوها وملكوا القلعة » غير أن صاحبها استطاع استعادتها من الباطنية بعد قتال شديد « قتل فيه خلق عظيم من أهل شيزر ومن الباطنية » (٢٥) . وهكذا أثار الباطنية الرعب والفرع في صفوف المسلمين ببلاد الشام ، وأصبح أهل بلاد الشام واقعين بين نارين ، نار الصليبيين من ناحية ، ونار الباطنية من ناحية أخرى .

ومن بين ضحايا الباطنية أيضاً القائد التركي مودود ، الذي ترعسم حركة الجهاد ضد الصليبيين ، والذي اغتاله أحد رجال الباطنية عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م (٢٦) ، في جامع دمشق اثناء تاديبته صلاة الجمعة (٢٧) ،

-
- (٢١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٥ .
(٢٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٧٦ .
(٢٣) يشير ابن التميمي الى ان العوام اطلقوا « السنتهم بالسب له — أي رضوان — وتعييبه وتحديثوا بذلك فيما بينهم » .
انظر : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠ .
(٢٤) اشترى شديد الملك ابو الحسن بن متفد شيزر من أحد الاساقفة في عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت شيزر ملكاً لبنى منقذ انظر : ابن ابي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٨٩ ، محمد مرسى الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .
(٢٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٦٨٣ .
(٢٦) ابن ابي الدم : التاريخ المظفر ، ورقه ٩٣ ب ، ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٧ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٢٠٧ .
(٢٧) يشير السيوطي الى انه بعد مقتل مودود ارسل ملك الفرنج الى صاحب دمشق رسالة جاء منها : « وان امه قتلت عبيدها في يوم عيدها في بيت معبودها ، لتحقيق على الله ان يبتزها » . انظر تاريخ الخلفاء ص ٦٨٤

وبالطبع كان المستفيد الوحيد من فشل مودود هم الصليبيون (٢٨) .

وبعد أن تولى الب ارسلان بن رضوان حكم حلب بعد وفاة والده عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م (٢٩) ، حاول طرد الباطنية من حلب ، ودخل معهم فى مناوشات وحروب ، قتل خلالها بعض رجال الباطنية مثل ابا طاهر المصايغ واسماعيل الداعى وغيرهم (٣٠) ، غير أن هذه المحاولات لم تقض على الباطنية بحلب ، وعادوا الى فونتهم السابقة وذلك بفضل الب ارسلان نفسه الذى انغمس فى اللهو وسوء التصرف ، مما اتاح الفرصة للباطنية لمعاودة نشاطهم الاجرامى من جديد متخذين حلب قاعدة لهم (٣١) .

ومن الأعمال الاجرامية التى قام بها الباطنية ايضا ، اغتيالهم آق سنقر البرسقى ، صاحب الموصل ، عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، وهو الرجل الذى تحمل عبء الجهد ضد الصليبيين فى شمال الشام بعد أن عجز حكامه عن الصمود فى وجه الصليبيين ، وقد قام جماعة من الباطنية بالوثوب عليه أثناء تأديته صلاة الجمعة بجامع الموصل (٣٢) ، وكان

(٢٨) انظر ما سبق فى الفصل الرابع .

(٢٩) هو تاج الملوك الب ارسلان وكان يعرف بالأخرس ، وكان عمره حين تولى حكم حلب ستة عشر عاماً (ابن العديم : زبدة الطلب ، ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصنيبية ج ١ ص ٥٤٢ .

(٣١) عن سوء سيرة الب ارسلان انظر :

العظيمى : تاريخه . Jornal Asiatique , p 382.

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان . Rec. Hist . or , T3, p 567.

ابن العديم : بغية الطلب . Rec . Hist. or. T3 , p 728. ،
وقد قال ابن القلانسي عن الب ارسلان بعد مقتله « وقد كان تدبيره لنفسه ورعيته سيئاً فاسداً لا يرجى له صلاح ولا اصلاح ، فمضى لسبيله غير مأسوف عليه » . ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٩١ .

(٣٢) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ٩٩ ب ، ابن العديم : بغية الطلب . Rec . Hist. or, T3 , p 726. ، ابن واصل : مفرح الكروب ، ج ١ ص ٣١ .

البرسقى قبل مقتله قد حقق عدة انتصارات على الصليبيين^(٣٣) ، اذك فرح الصليبيون كثيرا بمقتله ، واخذتوزوا فرصة اضطراب الأحوال بالشام وقاموا بمهاجمة القرى والضياع الآمنة ، من ذلك ما فعله جوسلين من مهاجمة أعمال حلب وقراها ، بل تعدى الأمر الى مهاجمة حلب نفسها ، وكادت المدينة تسقط فى يد جوسلين^(٣٤) ، فاضطر حاكمها سليمان بن عبد الجبار بن أرئق الى دفع مبلغ كبير من المال لجوسلين حتى يبعده عن حلب^(٣٥) .



ثم امتد نشاط الباطنية الى جنوب بلاد الشام بعد استيلائهم على قلعة بانياس عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م^(٣٦) ، ويستفاد مما ذكرته المصادر أن الباطنية حصلت على بانياس نتيجة علاقة المودة التى ربطت طغتكين اتابك دمشق مع أحد زعماء الباطنية الموافدين حديثاً من فارس وهو بهرام ، وقد أقام هذا الأخير صيفاً على طغتكين بدمشق ، ويحاول ابن القلانسي^(٣٧) — وهو مؤرخ دمشقى — تبرئة طغتكين من استضافة بهرام وتشجيعه على البقاء فى دمشق بأن طغتكين كان مكرهاً فى ذلك خشية غدر الباطنية فيقول ابن القلانسي وقد « اكرم — اى بهرام — لانتقاء شره وشر جماعته » . ولكن مهما كانت دوافع استضافة بهرام واكرامه بدمشق ، فان النتيجة هى استفحال خطر الباطنية الذين حصلوا على بانياس من طغتكين لتكون معقلاً لهم بجنوب الشام . وقد اثار هذا

= ويبدو أن الباطنية قتلوا البرسقى انتقاماً منه ، لقيامه فى العام السابق ٥١٩ هـ بقتل جماعة منهم ، بعد اعتقاله انهم هم الذين قتلوا القاضى ابو الفضل ابن الخشاب (انظر : ابن ابى اللدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ٩٩ ب) .

(٣٣) البعظيمى : تاريخه 382. — Jornal Asiatique,

(٣٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٣١ ،
Stevenson : The Crusaders in the east, p 119.

(٣٥) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٣٩ ،

(٣٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٤ .

(٣٧) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٥ .

العمل المعاصرين من فقهاء وعلماء ومؤرخين واعتبروه كارثة حلت بالديار الإسلامية^(٣٨) .

ويبدو أن طغتكين أحس بعد ذلك بالآثار السيئة التي صاحبت استيلاء الباطنية على بانياس واتخاذها معقلاً لنشاطهم الإجرامى ، لذا حاول التخلص منهم ، لكنه توفى بعد قليل ، وبعد تولية تاج الملوك بورى حكم دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، تأمر الباطنية ضده (عام ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) واتفقوا مع الصليبيين على تسليمهم دمشق ، فى مقابل حصولهم على مدينة صور ، وبعد أن أيقن بورى من تأمرهم ، حمل عليهم حملة قوية بقصد القضاء عليهم ، وقتل زعميهم المزدقانى وعلق رأسه على باب القلعة ، ونادى فى البلد بقتل الباطنية ، وقتل منهم جماعة كبيرة^(٣٩) .

وكان الصليبيون هم المستفيدون من وراء هذا التفكك الذى أصاب الدولة الإسلامية ، ففضلاً عن استيلائهم على بانياس من الباطنية^(٤٠) ، فإنهم قاموا بالاغارة على دمشق منتهزين فرصة اضطراب الأحوال بها ، وضمت هذه الحملة الصليبية كلا من بلدوين الثانى وفولك الانجوى ، وانزلا أضراراً بالغة بدمشق^(٤١) .



(٣٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٥ .

(٣٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٠ ، سبط بن الجورى : مرآة الزمان Rec. Hist . or . T3 , p 728.

(٤٠) وتشير المصادر الى أن الباطنية ببانياس خشوا من حكام دمشق فسلموا بانياس الى الصليبيين فى نفس العام (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) .

انظر : ابن ابى الدم : التاريخ المظفرى ، ورقه ٩٤ ب .

(٤١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(د) تحالف الباطنية مع الصليبيين

ومن المؤسف أن رجال الباطنية لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد بقية الزعماء المسلمين ، ويطفح تاريخ الباطنية بمثل تلك المحالفات وقد رحب الصليبيون بهذا التحالف وذلك لاحتياجهم لأفراد يعرفون أسرار البلاد ومسالكها ، وكثيرا ما اتخذ الصليبيون الباطنية خاصة فريقا ، المفداوية لتنفيذ مخططاتهم .

ويضيق بنا المقام عند استعراضنا كل الأدوار التي تحالف فيها الباطنية مع الصليبيين ، وانما سنكتفى ببعض الأمثلة فقط ، من ذلك اعتماد ريموند دي بواتييه على الباطنية عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م أثناء محاربته نور الدين محمود ، ويبدو أن الباطنية قد انكروا على نور الدين محمود أبطال كثير من شعائر الشيعة بدولته ، لذلك لم يترددوا في الوقوف الى جانب الصليبيين ضده (٤٢) .

كذلك بعد أن قبض صلاح الدين الأيوبي على زمام الأمور في مصر ، وأسقط الخلافة الفاطمية الشيعية عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م وأزال شعائرها ، غضب الباطنية لذلك ، وانضموا الى عموري الأول ملك بيت المقدس ، للوقوف امام خطر صلاح الدين عليهم (٤٣) .

غير أن محاولات الباطنية والصليبيين ومن ولاهم من شيعة الفاطميين قد فشلت في النيل من صلاح الدين ، وازداد موقفه قوة ،

(٤٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠١ ، ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٧ .

ومن الجدير بالذكر ان نور الدين محمود انزل في عام ٥٤٤ هـ هزيمة ساحقة بالصليبيين والباطنية جميعا ، كان من أهم نتائجها مقتل زعيم الباطنية نفسه .

(٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٤٩ ، المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ق ١ ص ٦٢ ، برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، ص ١٢٩ .

ثم انتقل الى بلاد الشام ليعيد توحيد دولة نور الدين ، كل هذا أثار مخاوف الباطنية ، لذلك قرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال ، فدبر مقدمهم سنان أكثر من مرة المؤمرات لاغتيال صلاح الدين ، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل (٤٤) .

وقد أدى موقف الباطنية المعادى لصلاح الدين ، الى قيامه بالأغارة على حصونهم وقلاعهم عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٦ م لمعاقبتهم وكادت قلعة مصياف — إحدى حصونهم — تسقط فى يده ، لولا أن طلب الباطنية توسط خال صلاح الدين شهاب الدين صاحب حماه ، فى الصلح بينهما ، فرحل صلاح الدين عنهم (٤٥) .

هكذا أدى نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الاسلامية ، الى تخوف كلا من الصليبيين والباطنية ، فازداد ارتباطهم وتحالفهم ، ومما يؤكد ذلك تلك الزيارة التى قام بها هنرى دوق شامبني لحصون ومعقل الباطنية عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، وما تبع ذلك من تبادل الهدايا بين الجانبين (٤٦) .

من الملاحظ أن الصليبيين أنفسهم لم ييسلموا من عدوان الباطنية ، ففى عام ٥٢٦ هـ / ١١٥٢ م اغتال الباطنية ريموند الثانى — صاحب طرابلس ، ويقال أن زوجته هو دبرن هى التى اوعزت الى الباطنية بقتله (٤٧) .

(٤٤) عن هذه المؤامرات انظر :

ابن راسل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٤ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٢٧ ، الاصفهاني : سنا البرق الشامى ص ١٠٠ .

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٠٧ .

(٤٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٧٢ — ٨٧٣ .
عن الجدير بالذكر ان الحشاشين كانوا يدفعون جزية للاستقرار والداومة ، وقد طالب شيخ الجبل من لوييس التاسع اثناء اقامته ببلاد الشام ان يعفيه من أداء هذه الجزية . راجع جوا نفيل : القديس لوييس ص ٢٠٤ .
(٤٧) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٦٣٠ .

وفى عام ٥٨٨ هـ / ١١٠٢ م اغتال الباطنية كونيارد مونت فرات ،
وقد اختلفت الآراء حول المحرض على قتله (٤٨) . كذلك فى عام
٦١٠ هـ / ١٢١٣ م اغتال الباطنية ريموند بن بوهيموند الرابع بتحريض
من بعض الأمراء الصليبيين (٤٩) .

استمر الباطنية يؤدون دورهم الهدام الى أن تم القضاء على
معقلهم فى العراق على يد المغول عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، حيث
استولى المغول على قلعة الموت وقبضوا على زعيمهم وقتلوه (٥٠) ، وبذلك
انتهى دورهم فى العراق . أما فريق الباطنية بالشام فاستمر يمارس
نشاطه التخريبي حتى كان عصر المماليك حيث قضى الظاهر بيبرس على
نشاطهم نفوذهم تماما واستولى على معقلهم (٥١) ، وبذلك انتهى
دور الباطنية الذين لعبوا دوراً هداماً فى تاريخ الشرق الاسلامى
عصر الحروب الصليبية .

(٤٨) عن هذه الاراء انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢
ص ٨٥٠ — ٨٥١ ،

Runciman b Hist and the Crusades, vol. 3, p. 65

(٤٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٢٠ .
ويذكر ابن الفرات ان الفرنج ارادوا الانتقام لمقتل ريموند فساروا
الى بلاد الاسماعلية غير ان الملك الظاهر صاحب حلب وقف الى جانب
الاسماعلية فى تلك المرحلة . انظر تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٦١١
ص ١٥٣ — ١٥٤ (تحقيق الشماع) .

(٥٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٠٦٢ ، الصياد :
المغول فى التاريخ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٥ .
= ويذكر ابن ابي الدم انه فى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م « ورد رسل الباطنية
الى بغداد من الموت وبقية بلادهم اخبروا عنهم انهم اسلموا واظهروا
شعائر الاسلام ، وبعثوا بمفاتيح بلادهم وقلاعهم الى دار الخلافة » التاريخ
المظفرى ، ورقة ١١٦ . ويفهم من هذا النص أن الباطنية بالموت كانوا قد
بدأوا منذ عام ٦٠٧ هـ فى التوب والعدول عن موقفهم الاجرامى والبعد عن
التطرف .

وخلال هذه الفترة لم يتوقف تعاون الباطنية مع الصليبيين ، والأمثلة
كثيرة على ذلك . انظر : جوزيف نسيم : حملة لويس ص ٢٢٥ — ٢٥٢ .
(٥١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ ،

الفصل السادس

المصراع زمن الأيوبيين

- (أ) الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين *
- (ب) اختلاف أولاد العادل *
- (ج) الحالة السياسية بالدولة الأيوبية بعد وفاة الكامل *
- (د) الخوارجية والأيوبيون *
- (هـ) المصراع بين الأيوبيين وسلاجقة الروم *

الفصل السادس

الصراع زمن الأيوبيين

(أ) الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين

بوفاة صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، دخلت الدولة الأيوبية فى حراع شديد بين خلفاء صلاح الدين سواء كانوا أبناءه أم اخوته ، ذلك أن صلاح الدين أوصى بالسلطنة من بعده لأكبر ابنائه وهو الأفضل نور الدين على حاكم دمشق ، وجعل له السلطة العليا على بقية أجزاء الدولة الأيوبية^(١) .

غير أن الأفضل هذا لم يكن أهلاً لهذه المسئولية الكبيرة ، وقد أشار بعض المؤرخين أنه انغمس فى اللهو والملاذات^(٢) ، ويبدو أنه فقد ثقته فى معظم من حوله من الأمراء والوزراء فابعدهم عن أمور الدولة ، فى حين قرب اليه الوزير ضياء الدين بن الأثير واعتمد عليه فى تصريف الأمور ، وقد اغضب هذا العمل معظم الوزراء والأمراء ، لذلك فضلوا المسير الى مصر حيث كان بها الابن الثانى لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان ، وحرصوه على منازلة أخيه الأفضل وانتزاع السلطنة منه^(٣) . وقد استمع العزيز عثمان لنداء هؤلاء الأمراء ، وخرج من مصر عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م متجهاً الى دمشق وفرض عليها الحصار^(٤) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٧٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٢١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٢٠ .

(٣) سميح عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ٧٧ .

(٤) ابن أبى الدم الحموى : التاريخ المظفرى ، ورقه ١١٤ .

وعلى هذا النحو بدأ الصراع بين أبناء صلاح الدين الأيوبي حول السلطنة ، مؤذناً بتفكك الوحدة التي جاهد صلاح الدين طوال عدة سنوات في إقامتها ، في وقت كان يحتاج فيه أبناء صلاح الدين لتضافر الجهود لطرد البقية الباقية من الصليبيين •

ولم يكن في مقدور الأفضل الخروج لمحاربة جيوش أخيه العزيز ، لذلك أرسل إلى عمه الملك العادل مستنجداً به • وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين يحكم الكرك والأردن بالإضافة إلى الجزيرة وديار بكر^(٥) ، وهن أقاليم ليست بنفس أهمية دمشق أو مصر ، لذلك انتهز العادل فرصة الخلاف بين أبناء صلاح الدين ليهد نفوذه إلى دمشق •

غير أن هذا الدور من الصراع انتهى باتفاق أبناء صلاح الدين على أن يعود العزيز عثمان إلى مصر ويأخذ بيت المقدس وما يتبعها من أعمال ، في حين يحتفظ الأفضل بدمشق ، أما الملك العادل فقد ظهر في صورة كبير البيت الأيوبي ، وأصبح من أقوى الشخصيات في تلك الفترة^(٦) •

ولم تلبث أن ساءت سيرة الأفضل بدمشق ، بعد أن استأثر وزيره ضياء الدين بن الاثير بالسلطة ، وكثرت شكوى الأمراء منه • وهنا وجد العادل فرصة ، فاتفق مع العزيز عثمان على انتزاع دمشق من يد الأفضل ، وإبعاده إلى صرخد (سلخدا) ، وأن يتولى حكمها العادل نفسه ، وأن تكون السلطة العليا في الدولة الأيوبية للعزيز عثمان ، ويحتفظ كذلك بأقرب السلطنة^(٧) •

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٧٩ ،

(٦) المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١٢٨ •

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٦١ •

وهكذا انتهى الدور الأول من أدوار الصراع بين أبناء صلاح الدين بعزل الأفضل عن حكم دمشق وتولية العادل حكمها ، والحق أن العادل قام في تلك المرحلة والمراحل التي تلتها بأمور البيت الأيوبي خير قيام ، ففضلا عن قيامه بحل المشاكل الداخلية ، قام أيضا بصد كافة الهجمات التي قام بها الصليبيون على أملاك الأيوبيين • فقد قام الصليبيون عام ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م بالاغارة على بعض المدن الإسلامية منتهزين فرصة انشغال أبناء البيت الأيوبي بمشاكلهم الداخلية ، غير أن العادل استطاع انزال الهزيمة بهم بتل العجول ، كما استولى منهم على يافا • كذلك قام الصليبيون بالزحف على بيت المقدس يقصد الاستيلاء عليه منتهزين فرصة انشغال أبناء البيت الأيوبي بخلافاتهم الداخلية ، فما كان من العادل إلا أن وحد قوى الأيوبيين وأنزل بهم هزيمة ساحقة^(٨) •

أما الدور الثاني من أدوار الصراع بين أبناء البيت الأيوبي ، فقد نشب بعد وفاة العزيز عثمان عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م ، ذلك أن الأمراء الصلاحية اتفقوا على تولية العادل مصر ، إلا أن بقية الأمراء رفضوا ذلك ، وفضلوا احضار الأفضل من صرخد ، وتوليته مقاليد الأمور بمصر ، وبالفعل تم احضار الأفضل وتولى حكم مصر^(٩) •

ثم اتفق كل من الملك الأفضل صاحب مصر والملك الظاهر صاحب حلب والملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص على عمهما الملك العادل ، واتفقوا على المسير الى دمشق وانقراعا منه عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م • وعندما علم بذلك العادل وكان في ذلك الحين خارج دمشق ، عاد اليها مسرعاً قبل وصول الأفضل وحلفائه ، واستعد لصد هجوم أبناء أخيه ، واستعان بولده الملك الكامل •

(٨) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ٨٢ •
(٩) ابن أبي الدم الحوي : التاريخ المظفر ، ورقه ١١٤ أ ،
السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٧٢٢ •

وبعد أن وصل الأفضل وحلفائه إلى دمشق ، فرضوا عليها الحصار ، واستمروا محاصرين لها إلى أن دخلت الأشقاء فرفعوا عنها الحصار وعادوا إلى بلادهم * وفى تلك الأثناء راسل العادل أمراء مصر واتفق معهم على تسليمه مصر ، لذلك سارع بالتوجه إليها عقب رحيل الأفضل عن دمشق ، وأنزل بجيوش الأفضل الهزيمة ودخل مصر فى نفس العام (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) فى حين فضل الأفضل الرحيل إلى صرخد (١٠) *

وهكذا استطاع العادل توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى ، بعد أن مزقها الصراع والانقسام *

* * *

(١٠) ابن أبى الدم الحموى : التاريخ المظفرى ، ورقه ١١٤ ١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(ب) اختلاف أولاد العادل

وعاد الصراع مرة أخرى بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة الملك العادل عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ، عندما نشب الخلاف بين أبناء الثلاثة وهم الملك الكامل أبو المعالي محمد صاحب مصر ، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، والملك الأشرف موسى صاحب حران والرها (١١) . وتشير المصادر إلى أن سبب هذا الصراع يعود إلى أطماع الملك المعظم عيسى في أملاك أخيه الأشرف موسى وأملاك بقية أبناء البيت الأيوبي بالشام مثل حماه وحمص (١٢) .

وقد انتهز المعظم عيسى فرصة غياب أخيه الأشرف عن بلاده وإقامته بمصر عند أخيه الملك الكامل عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، وقام بالاغارة على أملاكه ، كما وضع يده على حماه ، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الأشرف اتفق مع أخيه الكامل على مكاتبة المعظم يطلبان منه الرحيل عن حماه والكف عن تطلعاته وأطماعه ، وما أن وصلت تلك الرسالة إلى المعظم إلا وغضب كثيراً واضطر إلى الرحيل عن حماه « مغضباً محنقاً على أخيه ، فكان ذلك ابتداء الموحشة بينه وبينهما » (١٣) .

وهكذا بدأ الصراع يظهر من جديد بين أبناء البيت الأيوبي ، وزاد من حدة هذا الصراع ما توهمه المعظم من حدوث اتفاق بين الملك الكامل والملك الأشرف موجه ضده بقصد إبعاده عن حكم دمشق وأخذها منه . لذلك سارع بإقامة جبهة ضدهما عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م

(١١) أبو المحاسن : مورد اللطافه ، ص ٣٠ ، الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ١١٢ — ١١٣ .

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١١٧ — ١٢٠ .

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢١٤ .

من كل من مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك صاحب
اربيل ، والملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب خلاط وميا فارقين وحانى
وولى عهد الأشرف ، وتم الاتفاق على أن يقصد الأول الموصل وكانت
لبدر الدين لؤلؤ الذى كان منتظماً للأشرف ، فى حين يخرج الثانى على
الأشرف ويحاربه ، بينما يقوم المعظم بمهاجمة البلاد الشرقية
التي للأشرف (١٤) .

وامام ذلك الخطر أرسل الأشرف الى أخيه الملك الكامل يعرفه
الحال ليتخذ من التدابير ما يمنع سقوط املاك الأشرف فى يد المعظم
وحلفائه . فبعث الملك الكامل الى المعظم يقول له :

« ان تحركت من بلادك سرت اليه وأخذته » فخاف المعظم وعاد
الى دمشق (١٤) . فى حين فشل مظفر الدين كوكبورى فى الاستيلاء
على الموصل ، بينما أذعن المظفر شهاب الدين غازى للأشرف وعاد
الى طاعته ، فعفا عنه الأشرف (١٦) .

وعلى هذا النحو فشل المعظم عيسى فى الاستيلاء على املاك
الأشرف عن طريق تحالفه مع مظفر الدين كوكبورى والمظفر شهاب
الدين ، مما جعله يبحث عن عون جديد يساعده فى تحقيق طمعه الخاصة
بالاستيلاء على أراضي أخيه الأشرف والوقوف فى وجه أخيه الكامل .

وأخيرا وجد هذا العون ممثلا فى قوة أخرى خارج البيت الأيوبرى
هى قوة الخوارزميه ، وقد أدى هذا الى اتساع دائرة الصراع بين أبناء
البيت الأيوبرى ، وهدد وحدته ، وأدى فى النهاية الى ضياع أملاك
المسلمين .

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(١٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢١٥ .

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٣٨ — ١٤٠ .

فقد حدث في أوائل عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، حينما قوى أمر السلطان جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه ، وصارت له مملكة عراق العجم واذربيجان^(١٧) ، أن راسله الملك المعظم عيسى^(١٨) ، وادلمعه في بلاد أخيه الأشرف^(١٩) ، وصارت كلمتهم واحدة^(٢٠) ، ويذكر المقرئ^(٢١) أن المعظم راسل جلال الدين الخوارزمي واتفق معه « معاذة لأخيه الكامل ولأخيه الأشرف صاحب البلاد الشرقية » .

والمواقع ان فكرة تحالف المعظم مع جلال الدين الخوارزمي صادفت قبولا لدى الأخير ، الذي وجد في ذلك الحلف فرصة لتوسيع نفوذه على حساب ما جاوره من البلاد^(٢٢) . كما رأى فيها أيضا فرصة لضم المعظم الى جانبه ضد الخليفة العباسي ، وقد أشار سبط بن الجوزي^(٢٣) الى ان جلال الدين الخوارزمي كتب الى المعظم في الخروج لمحاربة الخليفة العباسي ، غير أن المعظم رفض ذلك وقال : « أنا معك على كل أحد الا الخليفة فإنه امام المسلمين »^(٢٤) .

(١٧) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢١٥ ، الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٤٩ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١٠ ورقه ٦٨ (مخطوط) .

(١٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٣٢ ، ابراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ، ورقه ٨٥ (مخطوط) .

(١٩) ابن العميد : زبدة الحلب ، ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ ، ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٥ ، ابن العميد : اخبار الايوبيين ، ص ١٣٦ .

(٢١) السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢١٦ .

(٢٢) حافظ احمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، الصياد : المغول في التاريخ ، ص ١٢٣ — ١٢٨ .

(٢٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٣٤ .

(٢٤) ونتيجة ذلك العداء بين الخليفة العباسي وجلال الدين ، أرسل الخليفة الى المعظم عام ٦٢٣ هـ خلعه وطلب منه الرجوع عن موالاته جلال الدين الخوارزمي . (ابو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٢٦٣) .

ولم يكتف المعظم بمخالفة جلال الدين ، بل أراد أن يتبع مع الملك الكامل أسلوب التهديد وإشاعة الخوف فى نفسه ، فكتب اليه يقول : « ان قصدتني لا آخذك الا بعسكرك » (٢٥) . ونتيجة لذلك التهديد توهم الملك الكامل من جنده وخاف من امرائه ولم يستطع الخروج من مصر (٢٦) . فانتهر المعظم هذه الفرصة وهاجم حمص وخرب قراها ومزارعها ، وحاول الاستيلاء عليها لكنه فشل فى ذلك فعاد الى دمشق (رمضان ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) . وعلى هذا النحو ازداد الخلاف بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وأخويه الملك الكامل والملك الأشرف .

ثم رأى الأشرف أن يذهب الى أخيه المعظم عيسى لاصلاح هذا الخلاف ، « وقطع مادة الشر » ، وكان ذلك فى رمضان من نفس العام (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) فرحب به المعظم ترحيباً كبيراً ، ولكنه حذر عليه ، وأرغمه على الوقوف بجانبه ضد الكامل صاحب مصر ، وصاحبه محاصره وحمص (٢٧) . وظل الأشرف محجوراً عليه عند المعظم حتى عاد الى بلاده فى جمادى الآخرة عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م (٢٨) .

وأثناء وجود الأشرف بدمشق ، شهد الرسل تتردد بين المعظم وجلال الدين الخوارزمى (٢٩) . وكان الاتفاق بينهما على مهاجمة جلال

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٧ ، ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقه ٨٥ (مخطوط) ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١٠ ورقه ٦٩ — ٧٠ (مخطوط) .

(٢٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢١٥ ، الخطط ج ٤ ص ٢١٣ ، ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٧ .

(٢٧) كان صاحب حمص هو الملك الناصر ، وصاحب حمص هو الملك المجاهد (العيسى) عقد الجمان : حوادث عام ٦٢٤ هـ .

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، ٢٠٥ ، أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٣٧ ، ابن العديم : زبدة الحطب ، ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢٩) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ص ١٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ورقه ٧١ — ٧٢ (مخطوط) ، ابن العديم : زبدة الحطب ، ج ٣ ص ١٩٨ .

الدين اخلاط ، كما شاهد أخاه المعظم وهو يرتدى خلعه جلال الدين الخوارزمي^(٣٠) . بالإضافة الى ذلك علم الأشرف بعزم المعظم على تزويج إحدى بناته من جلال الدين^(٣١) ، كما خطب لجلال الدين على منابر دمشق^(٣٢) .

وعندما عاد الأشرف الى بلاده ندم على ذهابه الى المعظم ، ولم يلبث أن « تأول في إيمانه » المتى حلفها للمعظم ، ورجع عن جميع ما تقرر بينهما^(٣٣) . كما أخبر الملك الكامل بكل ما شاهده في دمشق خاصة الاتفاق القائم بين المعظم وجلال الدين الخوارزمي^(٣٤) .

وعندما علم الكامل بذلك حاول أن يثنى المعظم عيسى عن تحالفه مع الخوارزميه ، وبذل في سبيل ذلك عدة محاولات كان من بينها محاولات دبلوماسية قام بها سفراء الملك الكامل كان من بينهم كمال الدين أحمد ابن شيخ الشيوخ ، الذي كلفه الكامل بالاقتراف الى دمشق والتحدث مع المعظم في عدم المضي عن مخالفة جلال الدين^(٣٥) . ويبدو أن المعظم عيسى قد أصم أذنيه عن سماع أي نداء لاعادة العلاقات الودية مع اخواته وابناء عمومته ، وفضل السير في طريق عدائه لهم وصداقته وتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي^(٣٦) .

(٣٠) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٦ ، الحموي : التاريخ المنصوري ، ورشه ١٥٣ — ١٥٤ .

(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٦ .

(٣٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، المقریزی : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٢٢ .

(٣٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٣٦ .

(٣٥) المقریزی : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٣ .

(٣٦) حامد زيان : العلماء بين الحرب والسياسة ، ص ٣٢ .

وهنا خشي الكامل « ان يكون اتفاقهما — أى المعظم وجلال الدين — سببا لزوال الدولة ، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ^(٣٧) الى الامبراطور فردريك الثانى يطلب منه القدوم الى عكا ، ووعدده أن يعطيه البيت المقدس وبعض الفتوح الناصرى ، وقصد بذلك « اشغال سر أخيه المعظم ليحتاج الى موافقته والدخول فى طاعته »^(٣٨) .

وهكذا ازداد الشقاق والخلاف ، واشتد الصراع بين ابناء البيت البيت الأيوبرى ، الذين استعانوا على بعضهم البعض بقوى خارجية ، هى قوة الخوارزميه ، وقوة امبراطور المانيا فردريك الثانى .

وكان من نتائج ذلك هو أن سلم الكامل بيت المقدس لفردريك الثانى ، بعد أن كافح وجاهد جده صلاح الدين فى استعادته من الصليبيين^(٣٩) . وهذا تأكيد صريح لما سبق أن ذكرناه من أن المستفيد الوحيد للصراع بين القوى الاسلاميه ، هم الصليبيون .

(٣٧) عن فخر الدين بن شيخ الشيوخ انظر : حامد زيان : العلماء بين الحرب والسياسة ص ٤٦ — ٨٤ .

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٦ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١٠ ورشه ٨٨ (مخطوط) .

(٣٩) عن تفاصيل ذلك انظر : حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ، ص ١٢٣ — ١٤٨ .

(ج) الحالة السياسية بالدولة الأيوبية بعد وفاة الكامل

بوفاة الملك الكامل محمد ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، اضطربت أمور الدولة الأيوبية ، خاصة بلاد الشام ، ففى حين أقر الكامل على حكم مصر ابنه العادل الصغير (٦٣٥ — ٦٣٧ هـ / ١٢٣٧ — ١٢٣٩ م) ، إلا أنه أبعد ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين إلى حصن كيفا ، وفى نفس الوقت تصارع مختلف الأمراء على حكم دمشق •

ويذكر سبط بن الجوزى^(٤٠) وهو مؤرخ معاصر لتلك الأحداث ، انه بعد وفاة الكامل « اختلفت الأمراء فيمن يولون » ، وانتهى الأمر بتولية الملك الجواد حكم دمشق •

غير أن الأمور لم تستقر بذلك ، وانما ازداد الصراع بين أبناء البيت الأيوبي خاصة عندما أخذ الجواد فى الاستقلال بحكم دمشق عن السلطنة الأيوبية بمصر^(٤١) ، كما كان لمنافسة الناصر داود بن المعظم عيسى له أثر كبير فى اشتداد ذلك الصراع • والمعروف أن الناصر داود كان يطمع فى حكم دمشق التى كانت لأبيه سابقا^(٤٢) ، والواقع أن الناصر هذا كان حاقداً على الملك الجواد والملك العادل جميعاً^(٤٣) •

وقد أخذ الناصر يحيك المؤامرات ليس فقط من أجل الاستيلاء

(٤٠) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٠٧ •

(٤١) ويشير ابن واصل إلى أن الملك الجواد « كان يظهر الطاعة للملك العادل ، وأنه نائبه ، ويعمل فى الباطن على التفرد بملك دمشق » ومفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٩٢ •

(٤٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٤٥ ، الزبيدي : ترويح القلوب فى ذكر الملوك من بنى ايوب ، ص ٧٢ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٠٣ — ٣٠٥ •

(٤٣) عن دور الناصر داود صاحب الكرك انظر : يوسف درويش فواتمه : امارة الكرك الايوبية ص ٢٤٨ — ٢٦٣ •

على حكم دمشق ، بل أيضا لأوصول الى حكم مصر (٤٤) * وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هو اشتعال نار الفتنة بالدولة الأيوبية هو الى سبع سنوات الى أن تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب أمور السلطنة الأيوبية بمصر والشام عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م (٤٥) *

وهكذا شغل هذا الصراع ابناء البيت الأيوبي عن مهمتهم التي اضطلعوا بها وهي محاربة الصليبيين والجهاد في سبيل تحرير الأراضي الاسلامية ، خاصة وأن البابوية كانت تدعو في ذلك الوقت للقيام بحملة صليبية جديدة ضد مصر ، وهي التي سميت فيما بعد بالحملة الصليبية السابعة (٤٦) *

(٤٤) عن هذه المؤامرات انظر : حامد زيان : العلماء بين الحروب والسياسة ، ص ٢٤ — ٢٨ *

(٤٥) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٧ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٤٦) عن هذه الحملة انظر : محمد مصطفى زياده : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، جوزيف نسيم : حملة لويس .

(د) الخوارزمية والأيوبيون

ومما زاد من حدة التوتر ببلاد الشام في تلك الفترة ، هو اتجاه الدولة الخوارزمية^(٤٧) ناحية املاك الدولة الأيوبية ، ذلك أنه حدث بعد أن حطم المعول بقيادة جنكيز خان الدولة الخوارزمية عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، أن استطاع جلال الدين منكبرتي اقامة الدولة الخوارزمية مرة ثانية ، واتخذ من أصفهان عاصمة له^(٤٨) . ثم أخذ في توسيع ممتلكاته على حساب املاك الخلافة العباسية والدولة الأيوبية كما جاء تحالف المعظم عيسى مع جلال الدين — كما سبق أن ذكرنا — فرصة للأخير كي يهد نفوذه الى الشام ، مما زاد من حدة التوتر والصراع ببلاد الشام^(٤٩) . بالإضافة الى ذلك طمع جلال الدين في الاستيلاء على املاك الأشرف موسى خاصة الأقاليم الشرقية ، مما كان له اثر سىء في زيادة الفوضى والاضطراب في انحاء الدولة الأيوبية^(٥٠) .

١٧١١ يعود تأسيس الدولة الخوارزمية الى قطب الدين محمد الذي خلف ابيه انوشتكين في حكم اقليم خوارزم عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، نيابة عن السلجوقه . ونتيجة لضعف السلجوقه وانقسامهم في تلك المرحلة استطاع علاء الدين المنصور بن محمد بن انوشتكين اعلان استقلاله باقليم خوارزم عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م ، وحصل من الخليفة العباسي المقتدى الأمر الله (٥٣٢ — ٥٥٥ هـ / ١١٣٧ — ١١٦٠ م) على شبه تفويض بحكم خوارزم . ثم جاءت الظروف التي امت بالدولة السلجوقية وانتهيارها ، لفتح الفرصة امام هؤلاء الخوارزميه للعمل على توسيع رقعة دولتهم .

انظر : البنداري : تاريخ دولة آل سبجوق ص ٢٥٥ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨٥ — ٩٩ .

(٤٨) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ١٠٣ .

(٤٩) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٥٥ .

(٥٠) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٤٧ — ١٤٨ ، الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ٣١١ ، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ١٥١ — ١٥٥

وهكذا بدأ يدخل الخوارزمية كعنصر جديد في الصراع الدائر ببلاد الشام ، ولا شك في أن الأيوبيين خشوا كثيرا من الخوارزمية ، لذلك فضّلوا عقد الاتفاقيات مع الصليبيين ودفع الأموال لهم حتى يتفرغوا للقضاء على اطماع الخوارزمية . واستمر الحال على ذلك حتى مقتل جلال الدين منكبرتي عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وتقلك الدولة الخوارزمية (٥١) .

وبعد مقتل جلال الدين منكبرتي تشتت جنوده واتباعه ، ولم يبعد في مقدورهم العودة إلى خوارزم وخراسان بعد أن استولى المغول عليها ، لذلك هاموا على وجوههم في بلدان الشرق الأدنى ، وأخذوا يعملون كجند مرتزقة في خدمة من يطلب منهم ذلك (٥٢) .

وقد اعتمد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ / ١٢٣٩ — ١٢٤٩ م) على الخوارزمية في معاركه ، حيث كان أكثر جيشه يتكون منهم (٥٣) . غير أن الصالح لم يلبث أن خشي منهم خاصة بعد اتفاقهم مع عدوه الملك الناصر داود ، ويذكر ابن العميد (٥٤) ، أن الناصر داود « تزوج منهم واختلط بهم وقويت شوكتهم بانيانهم اليه » . لذلك شرع الصالح أيوب في محاربتهم للقضاء عليهم ، وقد امتلأت أحداث عامي ٦٤٤ ، ٦٤٥ هـ (١٢٤٦ ، ١٢٤٧) بالمعارك الطاحنة التي اشعلها الملك الصالح ضد الخوارزمية والناصر داود (٥٥) جميعاً ، وأخيراً انتهى هذا الصراع بعد أن استطاع الصالح أيوب استمالة الخوارزمية إلى جانبه ، بفضل دبلوماسية الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ (٥٦) .

-
- (٥١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٢٧٣ ، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٦٤ — ١٦٧ .
(٥٢) المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٥٥ ، الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧١ — ١٧٣ .
(٥٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٥٦ .
(٥٤) أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٧ .
(٥٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٦١ ، ابن أبيك : الدر المطلب ص ٣٥٩ .
(٥٦) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٧ ، المقرئ : الخطط ، ج ٢ ص ١٢ — ٣٣ .

(هـ) الصراع بين الأيوبيين وسلاجقة الروم

انقسمت دولة السلاجقة إلى عدة أقسام ، ففضلا عن دولة السلاجقة العظام بفارس ، كان هناك سلاجقة العراق وسلاجقة الشام وسلاجقة كرمان وكذلك سلاجقة الروم بآسيا الصغرى * وإذا كانت دولة السلاجقة العظام بفارس قد انتهت عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ، وكان آخر حكامهم السلطان سنجر معز الدين أبو الحارث أحمد بن ملكشاه ، وكذلك انتهت دولة سلاجقة العراق عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م وكان آخر حكامهم السلطان طغرل الثانى بن أرسلان شاه ، وكذلك انتهت دولة سلاجقة الشام عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م وكان آخر حكامهم الملك سلطان شاه ابن رضوان بحلب ، وكذلك انتهت دولة سلاجقة كرمان عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وكان آخر حكامهم محمد الثانى ، فان دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ظلت باقية حتى عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، أى أنها عاصرت الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك (٥٧) *

وخلال تلك الفترة الطويلة التى عاشتها دولة سلاجقة الروم (٤٧٠ — ٧٠٠ هـ / ١٠٧٧ — ١٣٠٠ م) ظهر بينها وبين كثير من الدول التى عاصرتها صراع ومنافسة ، غير أن صراعهم مع الأيوبيين خاصة عندما أخذ الأيوبيون يمدون نفوذهم إلى شمال الشام وأعلى الجزيرة ، ائتمد كثيرا ، مما يجعلنا نتحدث عنه *

وقد اتخذ هذا الصراع أشكالا مختلفة وإن كان فى نهاية الأمر أدى إلى تفتت وانقسام القوى الإسلامية وساعد على أن يحقق المصليبيون أهدافهم ، مع ملاحظة أن سلاجقة الروم لم يترددوا خلال هذا الصراع من التحالف مع المصليبيين أنفسهم ضد الأيوبيين *

(٥٧) انظر : زاهر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢١ — ٠٧

ومما يوضح ذلك ما حدث زمن صلاح الدين الأيوبي ، عندما خشي سلطان سلاجقه الروم عز الدين قليج أرسلان (الثاني) ابن مسعود (٥٥١ — ٥٨٨ هـ / ١١٥٦ — ١١٨٨ م) من اتساع املاك ونفوذه صلاح الدين الأيوبي ، وخشي من أن يفرض صلاح الدين سلطانه ونفوذه عليه ، لذلك رحب عز الدين بالتحالف مع أعداء صلاح الدين من الصليبيين (٥٨) .

ففى عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م عزم فردريك بربروسا امبراطور المانيا (١١٥٢ — ١١٠٠ م) فى الاشتراك مع كل من ملكى انجلترا وفرنسا فى الحملة الصليبية الثالثة التى دعت اليها البابوية لاسترجاع بيت المقدس من يد صلاح الدين (٥٩) . وقاد فردريك جيشه الذى وصفه المؤرخون بأنه كان ذا تنظيم عسكرى دقيق وعدد كبير (٦٠) ، متخذاً الطريق البرى بدلا من الطريق البحرى الذى اعتزم اتخاذه ملكى انجلترا وفرنسا (٦١) .

وقد أرسل فردريك بربروسا الى حكام البلدان التى سيمر بها جيشه يخبرهم بذلك ويطلب منهم الموافقة على تأمين جيشه وامداده بالمؤن والمعدات اللازمة ، وكان من بين الذين أرسل اليهم سلطان سلاجقه الروم عز الدين قليج أرسلان ، الذى استجاب ووافق على الوقوف الى جانب فردريك بربروسا ضد صلاح الدين وتعهده له بتسهيل عبور الجيش الالماني وامداده بما يلزم من مؤن وعتاد (٦٢) .

Stevenson : the Crusaders in the East, p 264, (٥٨)

ostrogorsky Hist of the Byzantine state, p 342.

Tout : The Empire and the papacy , p 299, Finlay : (٥٩)

Hist of the Greek , Vol3 , p 233

(٦٠) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ق ١ ص ٤٠٣ ،
ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٥٥ .

Ostrogorsky : Hist of the Byzantine state, p 360 (٦١)

(٦٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ،

Finlay : Hist of the Greek, vol3 , p 236.

وعلى هذا النحو نجد سلطان سلاجقه الروم وقد اعمى الحقد بصيرته ، يقف الى جوار فردريك بربروسا ضالا صلاح الدين في مرحلة حاسمة ، وقف فيها الغرب الأوروبى جميعه ضد صلاح الدين الذى أصبح فى ذلك الحين هو حامى حمى الاسلام ، وكان وقوفه الى جانب الصليبيين نابعا من حقه وتخوفه من صلاح الدين ، وحفاظا على مصالحته الخاصة والاحتفاظ بملكه بصرف النظر عن مصالح المسلمين كافة .

واذا كانت حملة فردريك بربروسا قد انتهت بالفشل خاصة بعد غرقه فى نهر المسائف عام ٥٤٦ هـ / ١١٩٠ م ^(٦٣) ، فانها كشفت عن مقف سلاجقه الروم من صلاح الدين الأيوبى .

وفى زمن السلطان كيقيباد الأول (٦١٦ — ٦٣٤ هـ / ١٢١٩ — ١٢٣٧ م) تجدد الصراع مرة أخرى بين سلاجقه الروم والأيوبيين . خاصة بعد مقتل جلال الدين منكبرتى عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م عندما طمع كيقيباد فى الاستيلاء على خلاط والرها وحران وهى من املاك الأيوبيين ^(٦٤) .

* * *

غير أن الملك الكامل محمد رفض الاستسلام ليقيباد ، ودعى ملوك المبيت الأيوبى للتكاتف والوقوف امام اطماع كيقيباد ومحاربتة ، ولكن ملوك بنى ايوب الذين امتلأ قلوبهم بالحقد والتنافس خشوا من ازدياد سطوة ونفوذ الكامل اذا استطاع تصفية مملكة سلاجقه الروم ، لذلك راسلوا كيقيباد فى الخفاء ، واتفقوا معه على الوقوف بجانبه ، وعندما علم

(٦٣) عن تفاهيل حملة الامبراطور فردريك بربروسا انظر :
حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة .

(٦٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٧ .

بذلك الملك الكامل انسحب على الفور تاركاً حراة والمرها تسقط فى يد
كيقباد الأول عام ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م (٦٥) .

وهكذا كان للصراع بين أبناء البيت الأيوبى من جهة ، وبينهم
وبين سلاجقه الروم من جهة أخرى اثار كبيرة على اشعال نار الفتنة
والحرب جميعاً .

* * *

(٦٥) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ١١٧ — ١١٨ .

« الخاتمة »

وصفوة القول أن منطقة الشرق الأدنى عصر الحروب الصليبية شهدت صراعاً وتطاحناً سياسياً وعسكرياً بين مختلف القوى الإسلامية التي تولت حكمها • وقد ساعد هذا الصراع على تفكك وانقسام عرى وحدة المسلمين ، الأمر الذى جنى من ورائه الصليبيون مكاسب كثيرة كان من أهمها نجاحهم فى الاستيلاء على بيت المقدس وغيره من الممتلكات الإسلامية •

ومن الملاحظ أنه كان من مصلحة الصليبيين استمرار ذلك الصراع ، لذلك عملوا على اشعال ناره باستمرار ، واثارة الخلاف بين الحكام المسلمين •

أما هؤلاء الحكام الذين انغمسوا فى الصراع مع بعضهم البعض ، فقد سيطرت مصالحهم الخاصة على تحركاتهم ، بصرف النظر عن المصلحة العامة للمسلمين • ففى القوات التى كان يتحتّم فيه على هؤلاء الحكام أن ينبذوا خلافاتهم ويتناسوا ما بينهم من أحقاد ، ويقفوا صفاً واحداً امام اعدائهم من الصليبيين الطامعين فى الأراضي الإسلامية ، نجدهم على العكس من ذلك يمدون ايديهم للصليبيين متحالفين معهم ، طامعين فى الحصول على مساندتهم للوصول الى أهدافهم وأطماعهم الشخصية ، وهو ما كان له أسوأ الأثر فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الفترة ، وأدى الى ترسيخ اقدام الصليبيين ببلاد الشام •

ويتّفق مسئولية ما وصل اليه حال الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت من فوضى واضطراب على عاتق الحكام المسلمين أنفسهم • فالسلاجقة الذين دخلوا الدولة العباسية كحماة لها ولممتلكاتها ، ما لبثوا أن وقعوا فى خلاف منذ البداية مع الخلفاء العباسيين أنفسهم ، وازداد الصراع فيما بينهم الأمر الذى أدى الى تفكك الدولة الإسلامية • ثم جاء انقسام

دولة السلاجقة الى عدة ممالك ودول يسودها التحاسد والأحقاد ،
ليزيد من ضعف الدولة الاسلامية ♦

وزاد من شر البلية ذلك الصراع الذى نشب بين الفاطميين والخلافة
العباسية ، فقد تناصب الفاطميون منذ البداية الدولة العباسية العداء ،
وعملوا على تقويض الدعوة العباسية واحلال الدعوة الفاطمية محلها ،
وانقسمت الدولة الاسلامية ازاء ذلك ما بين سنين وشيعه مما زاد من حدة
التوتر والاضطراب بها ♦

أما الخلافة العباسية ، فتتحمل هى الأخرى مسئولية كبيرة فى ذلك
الصراع ، ففى الوقت الذى كان يتحتم فيه على الخلفاء لم شمل
المسلمين وتوحيد صفوفهم نجد الدولة العباسية تمر فى تلك الفترة بمرحلة
من الضعف لا تساعد على حماية نفسها ، وحتى فى الافتترات التى
شهدت فيها الدولة العباسية الانتعاش وتولى ادارتها خلفاء أقوياء
من امثال المسترشد ، نجد هؤلاء الخلفاء يواجهون جهودهم نحو التخلص
من السلاجقة مما جعلهم يدخلون فى صراع مرير معهم لم تكسب
من رائه الدولة الاسلامية شئ سوى زيادة التفكك والضعف الانقسام ♦

أما بقية الحكام من الأتابكة وابناء البيت الأيوبى فيشهد التاريخ
أن الحقد والتنافس قد اعمى بصيرة البعض منهم عن الطريق الصحيح ،
وانقادوا وراء اطماعهم الشخصية متحالفين مع الصليبيين ضد المصلحة
العامة للمسلمين ♦ وسيظل يذكر لهم التاريخ هذا العمل وتلك الخيانة
أبد الدهر ♦

وثمة ملاحظة أخيرة ، وهى أن داء الصراع بين القوى الاسلامية
لم يكن من نصيب منطقة الشرق الأدنى بمفردها ، وإنما انتشر — للأسف
الشديد — فى كثير من أنحاء الدولة الاسلامية ، فعلى سبيل المثال
لا الحصر ، نجد أن هذا الصراع استشرى فى صقلية بين حكامها

المسلمين ، وانتهى نهاية مؤسفة باستنجد أحدهم بالنورمان ، الذين
سارعوا واستولوا على الجزيرة من يد المسلمين .

وهكذا كان للصراع بين قادة المسلمين وحكامهم عواقب وخيمة
على مجرى حوادث التاريخ .

* * *

المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات

- ابن أبى الدم الحموى : (ت ٦٤٢ هـ) .
أبو الحسن إبراهيم بن عبد الله
التاريخ المظفرى
مكتبة البلدية بالاسكندرية .

- ابن العديم : (ت ٦٦٠ هـ) .
كمال الدين بن أبى جراده .
بغية الطلب فى تاريخ حلب . دار الكتب رقم ٦١٥ تاريخ .

- ابن الأفرات : (ت ٨٠٧ هـ) .
محمد بن عبد الرحيم .
تاريخ الدول والملوك . دار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ .

— الحموى :

- أبو الفضل محمد على .
تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان .
المعروف باسم التاريخ المنصورى .

— الحنبلى :

- إبراهيم بن أحمد .
شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب . جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١

— سبط بن العجمى : (ت ٨٨٤ هـ) .

- موفق الدين أبو ذر أحمد .
كنوز الذهب فى تاريخ حلب . دار الكتب رقم ٨٣٧ تيجور .

— العيني : (ت ٨٥٥ هـ) .

- بدر الدين محمود .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . دار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ .

— النويرى : (ت ٧٣٣ هـ) .

- شهاب الدين أحمد .
- نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة

— ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ) .

- أبو الحسن على .
- التاريخ الباهر .
- الكامل في التاريخ .
- القاهرة ١٩٦٣ .
- المطبعة الأزهرية ، طبعة بيروت .

— ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) .

- شمس الدين أحمد بن محمد .
- وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
- القاهرة ١٣١٠ هـ .

— ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) .

- عبد الرحمن بن محمد .
- المعبر وديوان المبتدأ والخبر .
- المطبعة الأزهرية بالقاهرة .

— ابن الراهب :

- أبو شاکر بطرس بن أبى الکریم بن المهذب .
- تاريخ ابن الراهب .
- بيروت ١٩٠٣ .

— ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ) .

- بهاء الدين أبو المحاسن يوسف .
- النواذل السلطانية والمحاسن اليوسفييه .
- أو سيرة صلاح الدين .
- القاهرة ١٩٦٤ .

— ابن العديم : (ت ٦٦٠ هـ) .

- كمال الدين بن ابي جراده .
- زبدة الحلب في تاريخ حلب . دمشق ١٩٥٤ — ١٩٥٨ .

— ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ) .

- الشيخ جريس بن العميد .
 - أخبار الأيوبيين .
- Bulletin d' etudes Orientals Tom XV, 1955-57 (Damas
-1958).

— ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ) .

- محمد بن عبد الرحيم .
 - تاريخ الدول والملوك .
- العراق ١٩٧٨ .

— ابن الفلانسى : (ت ٥٥٥ هـ) .

- ابو يعلى حمزه .
 - ذيل تاريخ دمشق .
- بيروت ١٩٠٨ .

— ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) .

- عماد الدين الدمشقى ،
 - البداية والنهاية .
- القاهرة ١٩٤٨ .

— ابن هيسر : (ت ٦٧٧ هـ) .

- محمد بن على بن يوسف .
 - أخبار مصر .
- القاهرة ١٩١٩ .
Rec . Des. Hist. on, TI.

— ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ) .

- جمال الدين محمد بن سالم .
- مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب . القاهرة ١٩٥٣ — ٦٠ ، ٧٢ .

— ابن الوردي : (ت ٧٤٩ هـ) .

- عمر بن الوردي .
- تاريخ ابن الوردي المعروف بتتمة المختصر . القاهرة ١٢٨٥ هـ .

— ابن ابيك : (ت ٧٦٩ هـ) *

- ابو بكر بن عبد الله
- الدرر المضية في اخبار الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٦١ هـ *

— ابو شامة : (ت ٦٦٥ هـ) *

- شاب الدين ابو محمد عبد الرحمن
- الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية .
- القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ١٩٦٢ م *

— ابو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ) *

- عماد الدين اسماعيل
- المختصر في اخبار البشر
- القاهرة ١٣٢٥ هـ *

— ابو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ) *

- يوسف بن تغرى بردى
- النجوم الزاهرة في محاسن ملوك مصر والقاهرة
- طبعة دار الكتب

— اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) *

- ابو المظفر بن مرشد الشيزرى
- كتاب الاعتبار
- برنستون ١٩٣٠ هـ *

— البندارى : (ت ٥٩٧ هـ) *

- الفتح بن على
- تاريخ دولة آل سجلوق
- مصر ١٩٠٠ هـ *

— الزبيدى : (ت ١٢٠٥ هـ) *

- المرتضى
- ترويح القلوب في ذكر الملوك من بنى ايوب ، دمشق ١٩٧١ هـ *

— الخطيب البغدادي : (ت ٤٦٣ هـ) *

- الحافظ ابو بكر
- تاريخ بغداد
- القاهرة ١٩٣١ هـ *

— سبط بن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ) *

- يوسف قزاوغلى
- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
- حيدر آباد ١٨٥١ هـ ،
- Rec. Des Hist or. T3.

— السيوطى : (ت ٩١١ هـ) •

- عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين •
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة • القاهرة ١٢٩٩ هـ •
- تاريخ الخلفاء • القاهرة ١٩٧٥ •

— الشهر ستانى : (ت ٥٤٨ هـ) •

- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم •
- الملل والنحل • القاهرة ١٩٦٨ •

— العظمى : (ت ٥٥٦ هـ) •

- محمد بن على •
- تاريخ العظمى • Jornal Asiatique , Tom CCXXX, 1938.

— العماد الكاتب الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) •

- أبو عبد الله محمد بن صفى الدين •
- سنا البرق الشامى •
- القاهرة ١٩٧٩ •

— الفزالى : (ت ٥٠٥ هـ) •

- الامام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد •
- فضائح الباطنية • القاهرة ١٩٦٤ •

— القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ) •

- أبو العباس أحمد •
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا • طبعة دار الكتب العربية •

— المقرئى : (ت ٨٤٥ هـ) •

- تقى الدين أحمد بن على •
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء • القاهرة ١٩٤٨ •
- السلوك لمعرفة دول الملوك • القاهرة ١٩٥٦ •

— المؤيد فى الدين : (ت ٤٧٠ هـ) •

- داعى الدعاة هبة الله بن موسى الشيرازى •
- السيرة المؤيدية • القاهرة ١٩٤٩ •

— ناصر بن الحسين : (ت ٦٢٢ هـ) *

- أبو الحسن علي *
- أخبار الدولة السلجوقية *
- لاهور ١٩٣٣

— النعمي : (ت ٩٢٧ هـ) *

- عبد القادر بن محمد *
- الدارس في تاريخ المدارس *
- دمشق ١٩٤٨

— ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦ هـ) *

- شهاب الدين أبو عبد الله *
- معجم البلدان *
- ليبزج ١٨٦٧ م

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة

— أحمد كمال الدين حلمي :

- السلجوق في التاريخ والحضارة *
- الكويت ١٩٧٥

— برنارد لويس :

- أصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية
- الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) *
- بيروت ١٩٨٠
- بيروت ١٩٧١

— بيتشوف :

- تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء *
- بيروت ١٨٨٥

— جوزيف نسيم :

- حملة لويس ..

— حافظ أحمد حمدي :

- الدولة الخوارزمية والمغول
- القاهرة ١٩٤٩

— حامد زيان غانم :

- العلماء بين الحرب والسياسة *
- الامبراطور فردريك بربروسا *
- القاهرة ١٩٧٨
- القاهرة ١٩٧٧

- **حسن إبراهيم حسن :**
 تاريخ الاسلام السياسى
 تاريخ الدولة الفاطمية
 القاهرة ١٩٨٢ .
 القاهرة ١٩٦٤ .
- **حسن احمد محمود ، ابراهيم الشريف :**
 العالم الاسلامى فى العصر العباسى .
 القاهرة ١٩٨٠ .
- **حسن حبشى :**
 نور الدين والصليبيون .
 القاهرة ١٩٤٨ .
- **حسين امين :**
 تاريخ العراق فى العصر السلجوقى .
 بغداد ١٩٦٥ .
- **رئيسيد الجميلى :**
 دولة الأتابكة فى الموصل .
 بيروت ١٩٧٥ .
- **زامباور :**
 معجم الانساب والاسرات الحاكمة .
 القاهرة ١٩٥٢ .
- **سعد زغلول عبد الحميد :**
 تاريخ المغرب العربى .
 الاسكندرية ١٩٧٩ .
- **سعيد عاشور :**
 الايوبيون والمماليك .
 القاهرة ١٩٧٦ .
- **الحركة الصليبية .**
 القاهرة ١٩٧٦ .
- **سهيل زكار :**
 مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .
 دمشق ١٩٧٧ .
- **عبد النعيم حسنين :**
 سلاجقه ايران والعراق .
 القاهرة ١٩٥٩ .
- **فاروق عمر :**
 الخلافة العباسية فى عصورها المتأخرة . الامارات العربية ١٩٨٣

— **قؤاد عبد المعطى الصياد :**

- المفل فى التاريخ
- بيروت ١٩٨٠ .

— **لويس ارثمبالد :**

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط .
- القاهرة ١٩٦٠ .

— **محمـد جمال الدين سرور :**

- النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب .
- القاهرة ١٩٦٥ .
- النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق .
- القاهرة ١٩٦٤ .

— **محمـد سليمان الجنـدى :**

- تاريخ معرة النعمان .
- دمشق ١٩٦٣ .

— **محمـد كرد على :**

- خطط الشام .
- دمشق ١٩٢٥ .

— **محمـد محمـد موسى الشيخ :**

- الامارات العربية فى بلاد الشام .
- الاسكندرية ١٩٨٠ .

— **محمـد مصطفى زيادة :**

- حملة لويـس التاسع على مصر .
- القاهرة ١٩٦١ .

— **نافع توفيق العبود :**

- الدولة الخوارزمية .
- بغداد ١٩٧٨ .

— **يوسف درويش غواتمه :**

- امارـة الكرك الصليبية .
- الاردن ١٩٨٠ .
- الترجمة العربية للدكتور حسن حبشى .
- القاهرة ١٩٦٨ .

* * *

رابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية

Finlay : (G)

History of the Greek

London , 1856 .

— **Faruk Summer :**

OGuzlar

Ankra university 1967 .

— **Joinville : (J)**

Histoire de Saint Lewis

الترجمة العربية للدكتور حسن حبشى . القاهرة ١٩٦٨ .

.. **Marco - Polo :**

Travales .

London , 1963.

.. **Runciman : (S)**

History of the Crusades

Cambridge , 1954.

.. **Setton : (k)**

A history of the Crusades.

London 1964 .

.. **Smail : (R.C.)**

Crusading warfare.

Cambridge , 1967 .

— **Stevenson b (w . B.)**

The Crausaders in the East

Beiut, 1968 .

.. **Tout : (T. F.)**

The Empire and the Papicy

London, 1899.

.. **William of Tyre :**

The history of Deeds beyond the Sea Columbia , 1943

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥ — ٦
الفصل الأول :	
المدلاجقة والفوضى السياسية	٧ — ٢٢
(أ) الصراع حول السلطنة	٩ — ١٤
(ب) سلاجقة الشام والصراع الداخلى	١٥ — ٢٠
(ج) صراع السلاجقة مع القبائل العربية	٢١ — ٢٢
الفصل الثانى :	
دور العباسيين فى الصراع	٢٣ — ٣٨
(أ) العباسيون والصراع مع السلاجقة	٢٥ — ٣١
(ب) تنافس العباسيين مع الفاطميين	٣٢ — ٣٨
الفصل الثالث :	
الفاطيون والتفكك السياسى	٣٩ — ٥٠
(أ) صراع الفاطميين مع السلاجقة	٤١ — ٤٦
(ب) التنافس بين الوزراء	٤٧ — ٥٠
الفصل الرابع :	
الصراع زمن الاتاكة	٥١ — ٨١
(أ) حملة كربوفا والصراع بين الامراء	٥٣ — ٥٦
(ب) تحالف امراء المسلمين مع الصليبيين	٥٧ — ٥٨
(ج) فشل حملات مودود وبرسق	٥٠ — ٦٦
(د) تحالف حكام دمشق مع الصليبيين ضد زنكى	٦٧ — ٧٠
(هـ) دببى بن صدقه والتمزق الداخلى	٧١ — ٧٦
(و) تنافس الامراء بحانب عقب وفاة نور الدين محمود	٧٧ — ٨٠
(ز) موقف اتاكة الموصل من صلاح الدين	٨١ — ٨٣

الفصل الخامس :

- الباطنية وتمزيق وحدة الدولة الإسلامية . . . ٨٥ — ١٠٠
(أ) طبيعة الدعوة الاسماعيلية . . . ٨٧ — ٨٨
(ب) دور الباطنية بالعراق . . . ٨٩ — ٩١
(ج) امتداد نشاط الباطنية الى الشام . . . ٩٢
(د) تحالف الباطنية مع الصليبيين . . . ٩٨

الفصل السادس :

- الصراع زمن الأيوبيين . . . ١٠١ —
(أ) الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين . . . ١٠٣
(ب) اختلاف أولاد العادل . . . ١٠٧
(ج) الحالة السياسية بالدولة الأيوبية بعد وفاة الكامل ١١٣
(د) الخوارزمية والأيوبيون . . . ١١٥
(هـ) الصراع بين الأيوبيين وسلاجقة الروم . . . ١١٧
الخاتمة . . . ١٢١
المصادر والمراجع . . . ١٢٥
فهرس المحتويات . . . ١٣٥

* * *

رقم الايداع ٨٣/٤٥٢٦

دار التوثيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأرض ٣- حيضان الموصل- بجوان جامع الدعاو

